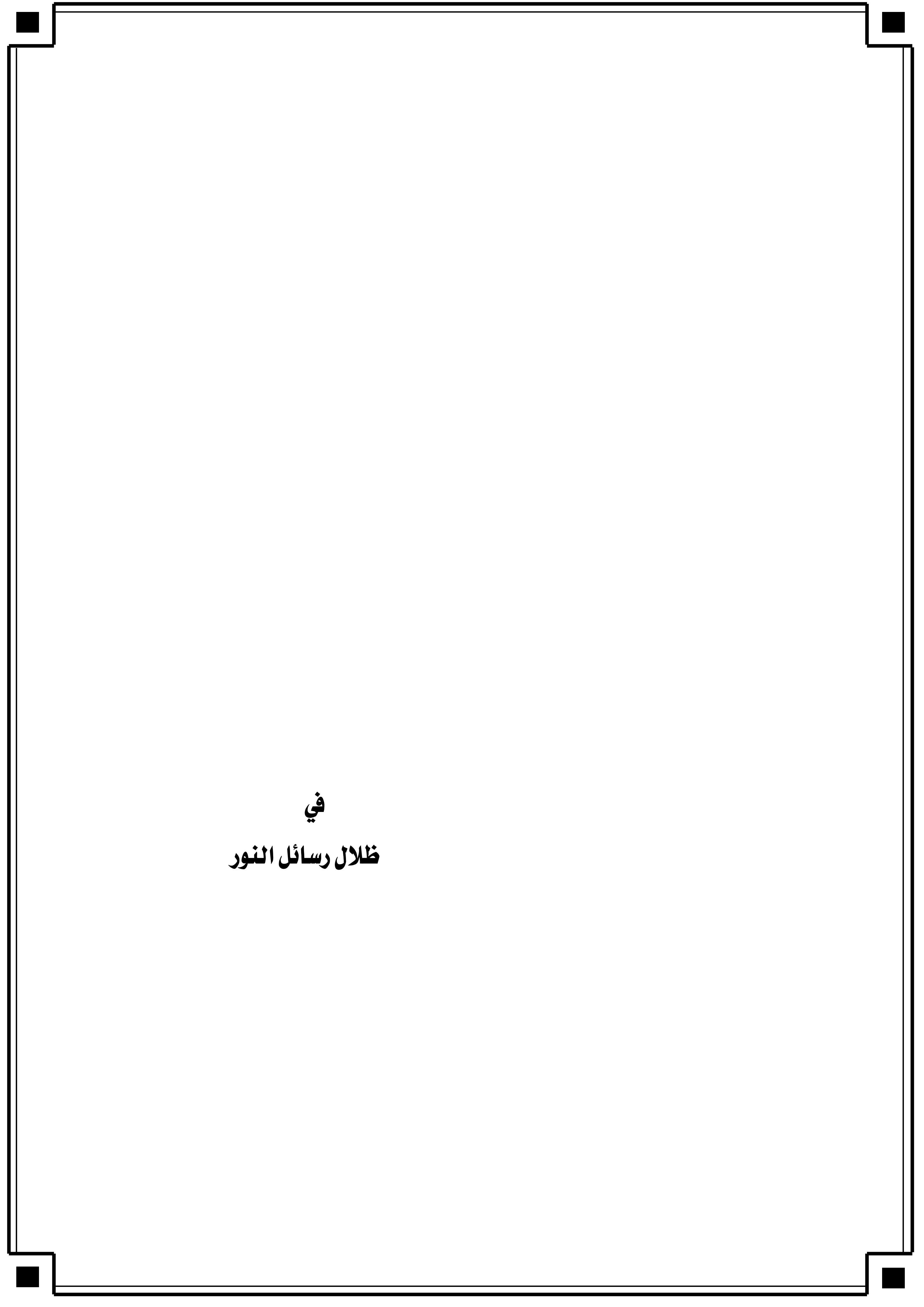


في

ظلال رسائل النور

الطبعة الأولى

١٤٣٣هـ - ٢٠١٢م

المملكة الأردنية الهاشمية
رقم الإيداع لدى دائرة المكتبة الوطنية
(٢٠١٢/6/١٩٩٢)

❖ يتحمل المؤلف كامل المسؤولية القانونية عن محتوى مصنفه ولا يعبّر هذا المصنف عن رأي دائرة المكتبة الوطنية أو أي جهة حكومية أخرى.



في

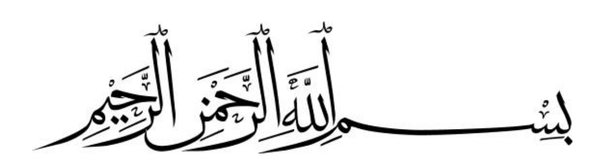
ظلال رسائل النور

الدكتور

مأمون فريز جرار



دار المأمون للنشر والتوزيع


بسم الله الرحمن الرحيم

بسم الله الرحمن الرحيم

المقدمة

الحمد لله رب العالمين، وصلى الله وسلم وبارك على سيدنا محمد وآله الطيبين الطاهرين، وصحابته المكرمين، ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين.

أما بعد؛

فهذه مقالات كتبتها في سلسلة ما أكتبه من مقالات في جريدة الدستور الأردنية منذ عام ١٩٩٩م، وألقيت في برنامج: طريق النور في إذاعة القرآن الكريم التابعة لإذاعة المملكة الأردنية الهاشمية، وهي منشورة في مدونتي
mamofj.maktoobblog.com/

وقد رأيت أن أطبعها في كتاب لعلها تصل إلى من لم يطلع من قبل على ما نشر في الجريدة أو بث في الإذاعة، ولم يطلع على المدونة.يستثنى من هذا المقالان الواردان في القسم الأول من الكتاب فقد قدم أحدهما: دروس من حياة الأستاذ النورسي إلى مؤتمر: رسائل النور وتجديد الخطاب الديني المعاصر "الذي عقد في القاهرة عام ٢٠٠٩ م، وألقي الآخر في الندوة الثالثة

للأكاديميين الشباب في إسطنبول في العام ٢٠١١م، وقد رأيت أن أجعلهما في بداية الكتاب لكونهما يعرفان بالأستاذ النورسي، رحمه الله وبرسائل النور.

ولا يخفى أن عنوان الكتاب (في ظلال رسائل النور) يدل على أن محتواه ليس أكاديميا يقوم على البحث العلمي بجمع ما قاله آخرون، أو تحليل النصوص تحليلا وفق مناهج معينة، بل محتوى الكتاب دعوي أنطباعي يأخذ بيد القارئ إلى بساتين رسائل النور، ويسعى إلى البوح بما يفتح الله تعالى من المعاني، مع الحرص أحيانا على نقل نص طويل من كلام الأستاذ سعيد النورسي، رحمه الله، لإشراك القارئ في ما تجلى من المعاني، أو أفاضت النصوص من الأنوار أو أثارت من المشاعر.

والأمل أن يؤدي هذا الكتاب ما أريد له من المقاصد وأهمها تقريب رسائل النور إلى القراء، ودفعهم إلى قراءتها مباشرة. وكم سمعت من يشكو أحيانا من أنه يجد من عمق الرسائل ما يحول بينه وبينها. وأنا أستذكر هنا قولا للأستاذ بديع الزمان سعيد النورسي، رحمه الله، الذي أحس بذلك فشبه حال من يقرأ الرسائل بحال من يدخل بستانا، فإن كان من قصار القامة نالت يده ما دنا من الثمرات، وإن كان طويل القامة امتدت

يده إلى الثمرات التي على الأغصان العالية، ولا يخرج أحد من بستان رسائل النور من غير أن يناله من خيراتها بإذن الله.

وسأسعى لوضع هذا الكتاب في مواقع متعددة ليكون الاطلاع عليه ميسرا بإذن الله من غير حواجز أو عوائق. كما أن إعادة طباعته متاحة لمن شاء في أي مكان شاء.

ولعل الله تعالى يعينني على إنجاز ما بدأته من:

"اللؤلؤ والمرجان من حكم بديع الزمان "

تلك المقتطفات الملتقطة من رسائل النور، التي لقيت القبول من جمهرة القراء الذين يتابعونها في جريدة الدستور منذ شهر رمضان عام ١٤٣٢ هـ، ثم صارت تنشر بعد شهر رمضان في مقال أسبوعي كل يوم جمعة في جريدة الدستور الأردنية وفي مدونتي وفي صفحة الفيسبوك: رسائل النور لبديع الزمان النورسي، التي تشرف عليها ابنتي وفاء، وفي صفحتي على الفيسبوك كذلك. وآمل أن تسهم هذه السلسلة في تعريف الناس برسائل النور وتقربها إليهم، وعسى الله تعالى أن يعين على نشرها في كتاب بعد اكتمال عقد اللؤلؤ والمرجان من الرسائل كلها.

وأسأل كل من قرأ هذا الكتاب أو بعضه دعاء في ظهر الغيب، وغض العين عن كل عيب، فما كان لي من أرب في

تأليفه أن أنال به عرض الدنيا ، ولا مجاراة الأقران في الكتابة عن الرسائل، بل أسال الله تعالى أن يصلح النية ويقبل العمل، ويجعلني من خدم رسائل النور حتى يعم نورها إلى أبعد مدى ممكن، وحتى ينتفع بها أكبر عدد مقدر.

وفي الختام أحمد الله تعالى على ما أعان من تسجيل رسائل النور بصوتي، وأسأله تعالى أن يتقبل العمل، على ما فيه من بعض الزلل الذي كنت أتمنى ألا يكون، من بعض الأخطاء الجلية أو الخفية، لو تمت مراجعة التسجيل أولا بأول، وذلك ما لم يحدث، ويمكن استدراك ذلك بتلقي الملاحظات ممن يستمع إليها لعل نسخة مصفاة من الشوائب توضع من بعد بين أيدي محبي الرسائل بإذن الله تعالى. ويمكن الاستماع إلى ذلك التسجيل الصوتي على الموقع الآتي:

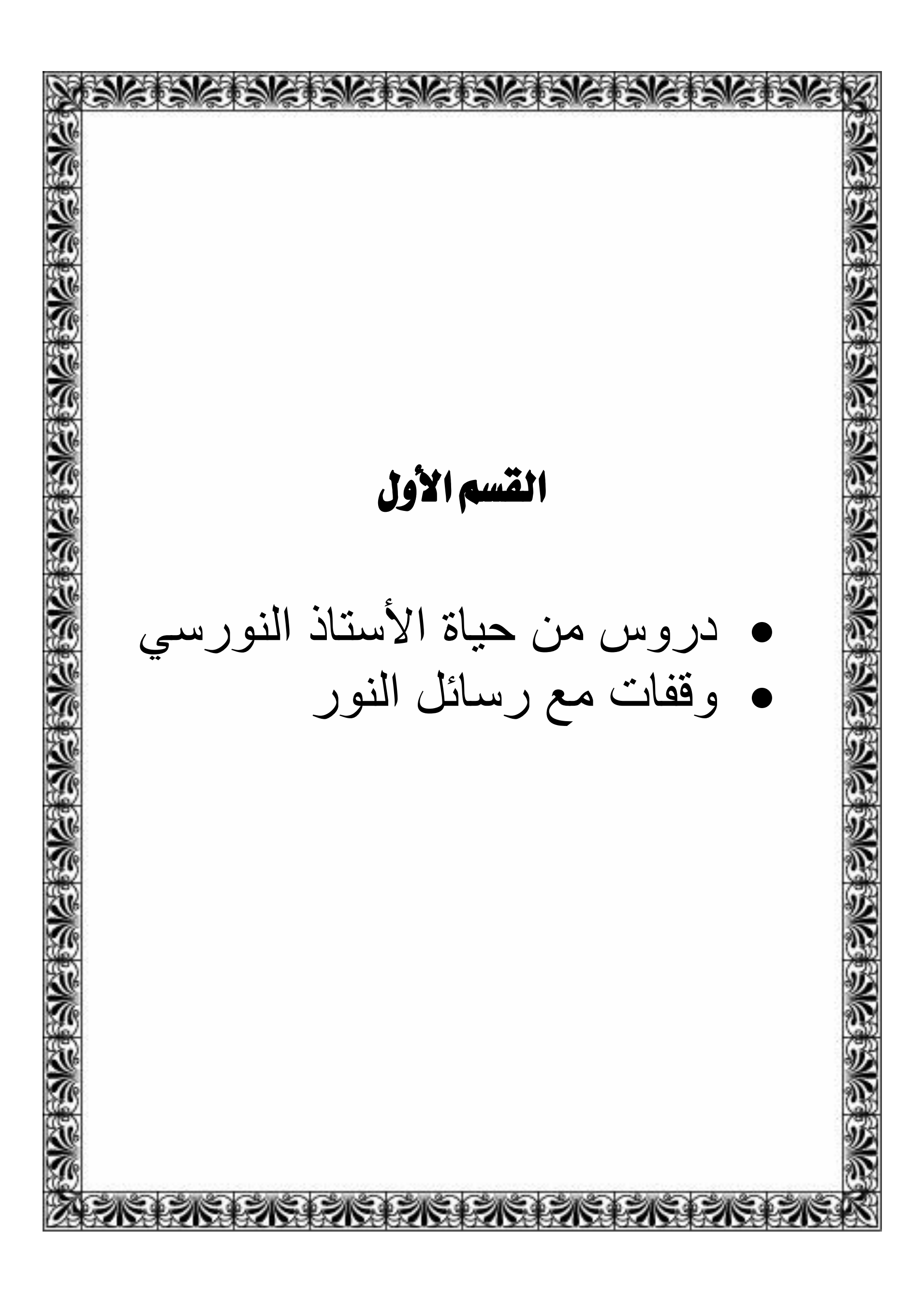
www.nur.org/ar

والله المستعان، وعليه التكلان، وإليه المصير وهو على كل شيء قدير.

والحمد لله رب العالمين أولا وآخرا.

خادم رسائل النور

د. مأمون فريز جرار



القسم الأول

- دروس من حياة الأستاذ النورسي
- وقفات مع رسائل النور

دروس من حياة الأستاذ النورسي

الأستاذ بديع الزمان سعيد النورسي رحمه الله شخصية متميزة بين دعاة الإسلام في عصرنا، شخصية كان لها من الأثر في بلاد الخلافة العثمانية السابقة ما لا يعلم حقيقته إلا الله تعالى، وسيأتي على الناس زمان يدركون أثر هذا العالم المجدد على حقيقته.

ومن الغريب أن عالما بقامة بديع الزمان النورسي رحمه الله يظل مجهولا في عالم العرب، لا بين العامة فحسب بل بين خاصة العلماء، ولا أدري إن كان ذلك تقصيرا من تلاميذ النور أم هو من تقصير المسلمين بالتواصل في ما بينهم. لقد سمعنا منذ منتصف القرن الماضي وما بعده بعلماء ودعاة من مختلف بلاد الإسلام: أبو الحسن الندوي، من الهند، وأبو الأعلى المودودي، من باكستان، ومحمد ناصر، من أندونيسيا ولكن لم يبدأ ذكر النورسي بالتداول بصورة تلفت النظر إلا منذ عقدين من الزمن، مع أنه من العلماء المعاصرين، وليس من زمن غابر.

أقول هذا وأنا أنظر في حياة هذا العالم المجدد، فأجده كما قال الأستاذ فتح الله كولن: داعية العصر، وأجده كما صنفه

بين كبار علماء هذه الأمة عبر عصورها، فأنت أمام شخصية غير عادية، شخصية سخرها الله تعالى لخدمة دينه، ودحض أمواج الظلمات التي أقبلت من كل حدب وصوب لتلقي ليلا ثقيلا على ديار الإسلام، فكان نورا في هذه الظلمات، وليس من باب المصادفة أن يسمي ما جرى به قلمه: رسائل النور!!

في حياة هذا العالم دروس تكتب بماء الذهب، وتملأ كتبا، ولو أن كل واحد من تلاميذه المقربين سجل ما كان له مع الأستاذ النورسي من المواقف، وما أخذه منه من الدروس لكان بين أيدينا مجلدات، ولعل ذلك كان مما ليس لي به علم في اللغة التركية[1]. هذه الدروس منها ما هو متوجه إلى الدعاة خاصة، ومنها ما هو موجه إلى كل مسلم.

أول درس من حياة النورسي يتجلى لي هو: **أثر العناية الإلهية في حياته**، هذه العناية التي تصطفي من يشاء الله تعالى لخدمة دينه، من أنبياء ومن دعاة وأولياء، وقد صرح الأستاذ النورسي رحمه الله بذلك في سيرته، وبين أن حياته سارت على غير ما

(١) وقد تم هذا الأمر وصدرت شهادات من عاصروا الأستاذ رحمه الله في كتاب: الشهود الأواخر الذي صدر في أربعة مجلدات،

كان يرغب أو كان له من طبيعة، فقد اتجهت حياته نحو العزلة، وكان يحب الأنس بالناس، ولو تتبعت مسار حياته من طفولة متميزة، وذكاء خارق، وعلم فاق به الأقران، ثم ما كان من جهاد قاده إلى الأسر، ثم ما كان من إفلات من الأسر ثم تعيينه في دار الحكمة الإسلامية، ثم بدء التحول لديه بنذير الشيب، وانكشاف حقيقة الحياة، والبحث عن أقرب طريق إلى رضوان الله، وما جرى بعد ذلك من أحداث ساقته إلى الغربة عن موطن صباه، وفرض الإقامة الجبرية عليه، وسوقه إلى المحاكم، كل ذلك كانت آثار العناية الإلهية بادية فيه ليقوم بدور في هذا العصر لا يقوم به سواه.

الدرس الثاني: **هو إدراك حاجات الأمة ووعي قضاياها**، وهذا ما كان من النورسي رحمه الله منذ وقت مبكر، ففي صباه سعى إلى إقامة مدرسة الزهراء، وهي في الحقيقة فكرة جامعة إسلامية تسعى إلى إصلاح التعليم الديني الذي أصابه الذبول والانكماش والانعزال عن الحياة، وفي هذا الإدراك تنبه إلى أهمية التعليم في نهضة الأمم. ولما وصله قول جلادستون بشأن القرآن الكريم أدرك أهمية الكشف عن أنوار القرآن وخدمته، فكرس حياته لذلك، وفي مرحلة تالية وجد أن إعصارا هب على

تركيا والعالم الإسلامي على تفاوت في شدته، فوجد أن إحياء الإيمان في القلوب هو أهم شيء في هذا الزمان، وأنه البذرة التي ينتج عنها كل خير في مجالات الحياة كلها فاتجه إليه وكرس حياته لهذا العمل الجليل من خلال رسائل النور.

الدرس الثالث: **العزة**، عزة الداعية وعزة المؤمن الذي لا يقبل المساومة، ويحذر الاستدراج، ويعلم أن كيد أعداء الإسلام كيد تكاد تزول منه الجبال، ولذلك يؤثر البعد عنهم حتى لا يكون أداة في أيديهم وقناعا حسنا لوجوههم البشعة يتزينون به أمام الناس حتى ينفذوا مخططاتهم وهم في مأمن من غضبة الأمة. وقد تجلى هذا الدرس حين رفض الشيخ النورسي رحمه الله ما عرضه عليه كمال أتاتورك من منصب وامتيازات وذلك حين أدرك أتاتورك أثر الأستاذ النورسي رحمه الله في الناس، وخطره على المخططات المرسومة ضد الإسلام فعرض عليه عروضا يسيل لها لعاب طلاب الدنيا، ومن يمكن أن يتخذوا ذرائع تحقق مطالبهم الذاتية باسم المصلحة العامة، كان يدرك حقيقة الدور الذي يقوم به مصطفى كمال وكان جريئا صريحا في مواجهته من غير مواربة، ولذلك لم يرض بالعروض التي قدمها له مصطفى كمال بأن يكون الواعظ العام للولايات الشرقية براتب ثلاثمئة ليرة،

وأن يكون نائبا في مجلس المبعوثان، وفي رئاسة الشؤون الدينية، مع بقائه عضوا في دار الحكمة الإسلامية التي تضم كبار العلماء. وربما يقول قائل: أليس قبوله لهذه المناصب سيكون بابا إلى فعل الخير ودفع الشر؟ والجواب قد يكون ذلك حين تصفو النوايا ويكون الأمر من باب وضع الإنسان في المكان الذي يستحقه، لكن النورسي أدرك أن كل ما عرض عليه هو لجام من مناصب عليا ورواتب مغرية يراد بها أن يسكت عن قول الحق وينطفئ النور الذي اتقد في قلبه وعلى لسانه، فوجد أن عزة المؤمن، وكرامة الداعية تأبى أن تجعله يساوم على دينه، فرفض تلك العروض، ودفع ثمن ذلك الرفض بلاء امتد حتى نهاية حياته. ولم تكن عزة النفس مقصورة على التعامل مع أصحاب السلطة بل كان منهجه في حياته كلها ألا يأخذ من أحد شيئا وألا يقبل هدية، وله في ذلك حكمة، أن له منهجا في الحياة، ولو فتح هذا الباب من بعد لوجد أطنانا من الهدايا تنهال عليه من تلاميذ النور وممن عرف فضله من الناس، ولكنه لم يرد الدنيا ومتاعها، ولم يرد أن يكلف الناس شيئا، كما أن من عزة النفس أن عليك أن تهدي كما أهدي إليك، وحياته لم يكن فيها من السعة ما يمكنه من التهادي، فقد عاش حياته كلها على مال قليل ادخره

من أيام شبابه، فأغلق ذلك الباب واستراح.

الدرس الثالث: **الصبر والاحتساب**، وحياة الأستاذ النورسي رحمه الله كلها بعد رفضه المساومة على دينه ورفض المناصب التي عرضت عليه، حياته كلها نموذج للصبر، وحين نقرأ الأخبار عن حياته، وأكله وشربه وعلاقته بالدنيا نجد أنه كان من الزاهدين الصابرين على القليل من متاع الدنيا رغبة في ما عند الله تعالى من الأجر، ونجده يصبر على النفي والسجن والإقامة الجبرية والمحاكمات الظالمة، يصبر وهو يحس بالظلم، ولكنه يستشعر النعمة في المحن، ويسمي السجن: المدرسة اليوسفية، وفي هذه التسمية مجموعة دلالات وإشارات، فيوسف عليه السلام مظلوم وهو مظلوم، ويوسف عليه السلام جاءه الفرج بعد المحنة وكذلك كان من شأنه، ويوسف عليه السلام أعلى الله تعالى ذكره على الرغم من التشويه الذي تعرض له بسبب امرأة العزيز، وكذلك كان مع الأستاذ النورسي رحمه الله الذي أعلى الله ذكره، وسخر له من التلاميذ من يحوّل الرسائل التي يكتبها في منفاه وسجنه إلى شلالات نور تطارد الظلام في كل مكان، ولئن عاش الأستاذ النورسي رحمه الله حياة صعبة، ولم تكن له زوجة ولا ولد فقد يسر الله تعالى له من أبناء النور من يدعو له أكثر مما يدعو ولد لوالده بعد موته.

الدرس الرابع: **التفكر والتدبر في آيات القرآن وآيات الكون**، وقد سلك الأستاذ النورسي رحمه الله في رسائل النور مسلكا فريدا فهي من جانب تفسير للقرآن الكريم، ومن جانب آخر نجد فيها الحديث عن كل شيء بلغة العصر، ومعالجة لمشكلات المسلمين في هذا الزمان، مع تدبر لا نظير له في آيات الله المنظورة، فهو يحملك على أجنحة التفكر إلى أفاق الكون لتحلق معه في آيات الله العلوية إلى المجرات بل إلى أعماق عالم الغيب كأنك تراه، ويحملك على أجنحة التدبر إلى أعماق الذرات لتنظر بديع صنع الخالق وتجليات أسمائه الحسنى، وأنت مع الأستاذ النورسي رحمه الله في رحلة دائمة دائبة مع آيات الله المسطورة القرآن الكريم ومع آياته المنظورة في الكون تجعلك ترى تجليات الأسماء الحسنى في رحلة تفكر وتدبر لا تنتهي، تشعرك بالجلال والجمال والحكمة والقدرة المبدعة.

الدرس الخامس: **الثبات على الحق**، وحياة الأستاذ النورسي رحمه الله كلها دروس في الثبات على الحق ومعاندة الباطل ومقاومته مقاومة أولي العزم من الرجال، وقد وهبه الله تعالى في هذا المجال جلدا يندر أن تجده عند العاملين للإسلام، فلا مساومة ولا مهادنة، ولو كان الثمن السجن والنفي والإقامة

الجبرية ومحاولة الاغتيال بالسم أو التقديم إلى مشنقة الإعدام، فالحق عنده فوق كل شيء، وفيه للدعاة نموذج قل من يرتقي إليه، فكثيرا ما نجد من الدعاة من يبحث عن التقية في مواجهة العنف الرهيب لأهل الباطل، ولهم في ذلك سند من الكتاب العزيز والسيرة النبوية، لكنه لم يأخذ بالرخص وأخذ بالعزيمة وضرب للدعاة في هذا العصر المثل في ذلك ليمضوا في طريق الحق مستأنسين بمن سبقهم عليه .

الدرس السادس: **البحث عن الحق وإيثاره على كل شيء**، وقد تجلى هذا في سعي الأستاذ النورسي رحمه الله إلى الخلاص من حالة القلق العميقة التي عاشها، والتي يدرك من يقف عليها نوع من الدوار وهو يتابع وصف الأستاذ النورسي رحمه الله لآثارها، لقد سعى إلى الحق المبين، ولم يتمسك بما نشأ عليه أو ألفه من طرق ومناهج، وكانت له رحلة طويلة عريضة مع العلماء من أئمة الهدى كالجيلاني والرومي والإمام الفاروقي وغيرهم ولكنه لم يسلم قياده لأحد منهم طلبا للسلامة وإيثارا للراحة بل اجتهد حتى وصل إلى توحيد الوجهة وكان القرآن الكريم هو المخرج له من تلك الأزمة، واختار طريقا إلى الله تعالى مختلفا عما هو متعارف عليه في الطرق الصوفية، طريقا يرى أنه أقصر وأسلم وأكثر مناسبة لعصرنا.

الدرس السابع: **التواضع ونكران الذات**، والأستاذ النورسي رحمه الله في هذا المجال نموذج قل نظيره، فلم يكن من منهجه الحرص على اجتماع التلاميذ من حوله، وما ينتج عن ذلك من التمجيد والتكريم والتفاني في الخدمة، ولم يكن همه أن ينال الاستحسان في ما يجري به قلمه من النور في رسائل النور، كان يربط تلاميذه برسائل النور و لا يربطهم بنفسه، بل إنه كان يرى نفسه أداة لتبليغ رسائل النور، ويعلن حاجته إليها واستفادته منها كأي تلميذ من تلاميذ النور، ولو أن رغب في ما يرغب فيه.بعض العلماء وأصحاب الطرق من تمجيد واحتفاء لنال الشيء الكثير ولكنه رجل نور الله قلبه فآثر ما عند الله وضرب في ذلك للناس النموذج الكريم. ولعل من أنصع الأدلة على هذا رغبته التي تحققت بعد وفاته بألا يعرف الناس مكان قبره، لأنه يعلم طبيعة الناس فلم يرد أن، يتخذ الناس قبره محجا ومقصدا بل أرادهم أن يتعلقوا بالنور الذي أشرق في رسائل النور.

الدرس الثامن: **ضرب النموذج العملي لا القولي**، لم يكن هم الأستاذ النورسي أن يكون خطيبا، مع إتقانه الخطابة، ولا مؤلفا، مع براعة تأليفه، وغزارة علمه، بل كان همه أن يكون داعيا إلى الله تعالى يحيي الإيمان في القلوب ورأى أن ذلك أهم

شيء في هذا الزمان، وهذا أمر لا يتم بالقول بل بضرب النموذج لتقوم على الناس به الحجة، وقد لا يستطيع الناس احتذاء النموذج كاملا ولكن يستطيعون السير على الدرب كل على قدر وسعه واجتهاده ونعمة ربه عليه، فمنهجه في الحياة قائم على البساطة والرضى بالقليل، ومنهجه في العبادة والذكر، والتفاني في حب الله وطاعته، والدعوة إليه، وتكريس طاقته وكل ما أوتي في سبيل ذلك، مع حفظ الجوارح من أن تتلوث: اللسان بالغيبة، والقلب بسوء الظن، والعين بالنظر الحرام باستثمار الوقت كله في أمر نافع، والجلد في الدعوة والعبادة، والتزام الكتاب والسنة، والاقتصاد في أمور الحياة، وحسن الظن والتواضع، كل ذلك أعطى لتلاميذه ولمن يأتي بعده على درب الدعوة نموجا يجعله يستصغر من العمل مهما يقدم لأنه يحس بالتقصير حين يوازن بين ما يقدم وما رآه من الأستاذ النورسي رحمه الله،فيمضي على درب الحق مجدا.

الدروس المستفادة من حياة الأستاذ النورسي رحمه الله تعالى كثيرة، وهذا ما أعان الله تعالى عليه، وأسأل الله تعالى أن ينفعنا بما ورد في رسائل النور وأن يعيننا على أن نكون نورا في الأرض بفضله ورحمته وتوفيقه، والحمد لله رب العالمين.

وقفات مع رسائل النور

لعل مما يلفت النظر في التاريخ البشري أن عدد من مر على هذه الأرض لا يحصيه إلا الله تعالى، حالهم كحال المليارات من النباتات الصغيرة المتشابهة التي لا تلفت النظر أو حبات الرمل أو الحجارة الصغيرة المتناثرة على وجه البسيطة، ولكن هناك من البشر من هم كالشجر الضخم المتميز أو كقمم الجبال العالية الشامخة التي تشد الأنظار وتحفر صورتها في العقول وتزرع الهيبة في القلوب.

وذاكرة البشرية عامرة بأسماء أئمة البشر في الخير والشر، أولئك لم يكونوا كغيرهم من البشر المعتادين بل كانوا شيئا مذكورا في ميدان الهداية أو مجال الضلال.

ومن هؤلاء المذكورين المشهورين في ميدان الخير: الأنبياء والمرسلون الذين جاؤوا الناس بالهدى ودين الحق وسعوا إلى بيان الصراط المستقيم الذي يحيا من سلكه حياة طيبة، وينقلب إلى خير منقلب في رحمة الله وجنته.

يضاف إليهم من كان معهم من حواريين وأصحاب ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين ممن كانوا من أئمة الهدى ودعاة

الخير، وأخص منهم من حملوا لواء تجديد أمر الدين للناس من حين إلى آخر حين يملأ الضباب الطريق وتتغبش الرؤيا ويحتاج الأمر إلى دليل.

أئمة الهدى هؤلاء حفظ التاريخ أسماءهم وتبعهم من طلاب الهدى أجيال يخلف بعضها بعضا مع تعاقب المصلحين وتتابع المجددين.

هؤلاء المجددون مثلهم كمثل مولدات الطاقة التي تمد الناس بما يحتاجون إليه من نور وحرارة وحركة وأسباب حياة.

هؤلاء المجددون لم يصنعوا أنفسهم، ولم يكن في حسبانهم أن يكونوا كما كانوا بل تم اجتباؤهم واصطفاؤهم ليكونوا في الموقع الذي تبوؤوه، ولعل غيرهم ممن عاصرهم كان يتوق إلى أن ينال ما نالوه ولم يتحقق له ذلك على ما كان عليه من علم وفضل، فذلك فضل الله يؤتيه من يشاء والله ذو الفضل العظيم.

والأستاذ بديع الزمان سعيد النورسي رحمه الله من هؤلاء المجددين الأعلام فقد أحيا الله به الدين في تركيا بعد أن أصابه إعصار مدمر في نهاية الربع الأول من القرن العشرين، والأستاذ النورسي داعية حين يذكر الدعاة، وولي صالح في صحبة زبدة الأولياء، وفيلسوف حين يعد الفلاسفة، ومفكر حين يذكر

المفكرون، ومفسر للقرآن الكريم في عداد المفسرين، وفقيه حضاري حين يحصى فقهاء الحضارة، وعبقري فرد حين يتجلى العباقرة في أفق الإنسانية، وداعية من دعاة نهضة الأمة وباحث في أسباب تأخرها، ومحام بليغ في الدفاع عن الحقيقة وإنسانية الإنسان، ومع ذلك كله تجده يتوارى وراء ما سال على قلمه من العلم والحكمة في "رسائل النور" ولا ينسب لنفسه فضلا، بل يرد الأمر للذي علم الإنسان ما لم يعلم، في ربانية مخبتة، وإخلاص عميق.

صلتي برسائل النور

لا أدري بالضبط متى سمعت برسائل النور وباسم بديع الزمان سعيد النورسي رحمه الله، ولكن الذي أذكره أنني التقيت الأستاذ إحسان قاسم الصالحي أكثر من مرة، وكان لنا لقاء في المغرب في واحد من ملتقيات الأدب الإسلامي، كما عقد في عمان عام ١٩٩٧ مؤتمر في عمان حول رسائل النور، وتكرر بعد ذلك اللقاء بيننا في القاهرة، وفي هذه اللقاءات أهدى إلي بعض رسائل النور من الرسائل المفردة لا في المجلدات، وأصدقكم القول أنني لم أقرأها يوم وقعت في يدي، ولعل منها رسالة الطبيعة، ولم أكن أعلم من هو بديع الزمان ولا أعلم ما

رسائل النور، بل إنني بعد حضوري المؤتمر الذي عقد في عمان واستماعي إلى محاضرين من بلاد شتى، لم تتفتح لي نوافذ كافية تشدني إلى رسائل النور، ولا أدري هل كان الطابع الأكاديمي للدراسات غير مغر ولا جاذب أم أنني لم أكن بعد مهيأ لاستقبال نور رسائل النور؟.

ولعل صلتي الحقيقية بدأت برسائل النور بعد أن حضرت ندوة عن الرسائل والأسلوب الأدبي فيها في مقر رابطة الأدب الإسلامي في القاهرة عام ٢٠٠٥ م، وفي تلك الندوة دار حوار بيني وبين الأستاذ إحسان حول رسائل النور، وقلت له: لقد وفرت رسائل النور في مكتبة دار المأمون للنشر والتوزيع للقراء، وذلك رغبة مني في نشرها بين الناس ليطلعوا عليها، وكانت دار النشر حديثة العهد، فقال كلمة كانت الحافز لي للإقبال على الرسائل قراءة وتدبرا، قال: ذلك لا يكفي نريدك أن تقرأها وتكتب عنها.

وكانت تلك الكلمة الشرارة التي أوقدت صلتي الحقيقية بالرسائل، فمنذ عام ٢٠٠٥ بدأت أقرأ فيها وأكتب عنها، ومن ذلك أنني قدمت برنامجا إذاعيا في إذاعة حياة إف إم قرأت فيه مقتطفات من الرسائل في برنامج بلغت حلقاته ١٠٦حلقات كما

أذكر، وكتبت في صحيفة الدستور الأردنية سلسلة طويلة من المقالات قدمت فيها محتويات الجزء التاسع من الرسائل "سيرة ذاتية" للقراء، ليعرفوا من هو بديع الزمان رحمه الله وما رسائل النور، وقدمت برنامجا من وحي رسائل النور في الإذاعة الأردنية بعنوان "طريق النور" امتد عدة دورات إذاعية تحدثت فيه عن كثير من المحاور والقضايا المستمدة من الرسائل، وكنت قد نشرت عددا من حلقات هذا البرنامج من قبل في جريدة الدستور الأردنية في شهر من أشهر رمضان المبارك حيث اعتدت منذ عام ١٩٩٩ أن أكتب مقالا أسبوعيا فيها ومقالا يوميا في شهر رمضان المبارك، ولكن كانت المقالات مختصرة وتم توسيعها في البرنامج والزيادة عليها ولعلها تصدر قريبا في كتاب بعنوان: "**في ظلال رسائل النور**"، وها هو الكتاب بين يدي القراء ولله الحمد.

وفي عام ٢٠٠٩ شاركت في مؤتمر عقد في القاهرة بترتيب مشترك بين جمعية رابطة الأدب الإسلامي ودار سوزلر للنشر وقدمت بحثا في ذلك المؤتمر بعنوان "دروس من حياة النورسي" وفي هذا المؤتمر دعوت الله دعاء صادقا وأمن من كان حاضرا ومما قلت في ذلك الدعاء: "اللهم كما يسرت لإحسان قاسم الصالحي ترجمة رسائل النور إلى العربية فيسر لي تسجيل رسائل النور

بصوتي" وأحمد الله تعالى أن ذلك الدعاء قد استجيب فقد قاربت على إتمام الجزء الثامن من الرسائل وبقي الجزء التاسع وأسال الله أن ييسر تسجيله قبل قدوم شهر رمضان المبارك، وما طمعت في هذا الأمر في عاجل منفعة بل احتسبته عند الله ورجاء أن أجد من طلاب رسائل النور دعاء بظهر الغيب كلما استمعوا إلى صوتي ما بقي الصوت يتردد في الأسماع. وقد أنجز التسجيل وصار بين أيدي المستمعين ولله الحمد.

وإن مما يحيرني أن العالم العربي (والأردن مثال على ذلك) ما يزال غائبا عن رسائل النور، بل ما يزال محروما من نور رسائل النور، على الرغم من الجهود الحثيثة للتعريف بها، تلك الجهود التي تسهم فيها دار سوزلر للنشر في القاهرة، التي نذرت نفسها لخدمة رسائل النور بنشرها ونشر الدراسات التي تكتب حولها، وكذلك المؤتمرات العلمية والندوات التي تعقد حولها سواء في إسطنبول أو في البلاد المختلفة بالتنسيق بين مؤسسات من تركيا ومؤسسة إسطنبول للثقافة والعلوم ومؤسسات محلية في العالم العربي، رغم كل ذلك ما زال الجمهور العربي يجهل رسائل النور، بل أقول: إن كثيرا من علماء الشريعة والدعاة لا يعرف رسائل النور وربما لم يسمع بها وإذا سمع بها فمن مكان بعيد ومن وراء حجاب.

ومـن الغريـب وقـوع مـا يمكـن أن نسـميه الظلـم المبني علـى الـوهم، هـذا الظلـم يتمثـل بـالحكم السـابق للقـراءة المبني علـى النظـرة العـابرة والتصـنيف الظـالم الـذي يـتم مـن خـلال الانطبـاع العـام لا القـراءة الواعيـة أو الصـحبة الحقيقيـة للرسـائل واجـتلاء حقيقتها.

ومـن أشـهر ألـوان هـذا الظلـم أن ينظـر أحـدهم في الرسـائل، يقلبهـا ثـم يضـعها جانبـا ويصـنف الرسـائل ومؤلفهـا في بـاب التصـوف، وهو ظلـم فـادح لسـبب واضـح هـو أن الأسـتاذ النورسـي رحمه الله أعلن بصريح الكلام في أكثر من موضع من الرسـائل أن هذا الزمان ليس زمان التصوف بل زمان الحقيقة القرآنية، ولم يتخذ لنفسه طريقة صوفية بل اشتق مـن القـرآن طريقـا أقـرب مـن طريق التصوف في الوصول إلى الإيمان وتحقيقه، والشيخ الصوفي كمـا هـو معلـوم يحـرص علـى لقـاء المريـدين مباشـرة في لقـاءات دورية، وأما بديع الزمان رحمـه الله فكـان زاهـدا في لقـاء النـاس ولا يلقى طلبة النور إلا للضـرورة، وكـان يرشـد النـوريين الـراغبين في لقائـه إلى قـراءة الرسـائل ففيهـا غنيـة عـن اللقـاء المطلوب، هـذا الظلم يصد عن الرسائل (الحـركيين) الإسـلاميين ويعطـي صـورة مجافية للواقع.

وهنـاك لـون آخـر مـن الظلـم يسـهم في صـد الحـركيين الإسلاميين وهو مبني على وهـم كـذلك، ذلـك هـو موقف رسـائل النور من السياسة، فشيوع قول الأستاذ النورسي رحمه الله "أعوذ بـالله مـن الشـيطان والسياسـة" مـن غـير وقـوف علـى مسـار رسـائل النـور وحيـاة مؤلفهـا وحقيقـة موقفـه مـن السياسـة وأسـباب ذلـك، وحقيقة السياسـة التي استعاذ بالله منها، إغفال ذلك يقـدم تصـورا خاطئا عن رسائل النور، وبخاصة إذا انضم هـذا الـوهم مـع الـوهم السـابق.

والظلـم الـذي يقـع ممـن يشـيع هـذا الـوهم ويروجـه ويتبنـاه فادح، لأنه يغفل الظروف التي عاشتها تركيا بعد إلغـاء الخلافـة عـام ١٩٢٤، ومسـار حيـاة سـعيد القـديم وسـعيد الجديـد، ويغفل الوعي العميق الذي كان لديه بمـا كانت الأمـة بحاجة إليـه بعـد الإعصار الذي اجتاح تركيا والعـالم الإسـلامي وسـعى إلى زلزلـة قواعـد الإيمـان مـن النفـوس واجتثاثـه مـن القلـوب والعقول، وخلـع القـرآن الكـريم مـن الحيـاة ومـن القلوب، كمـا يغفـل حقيقـة الرسـائل ويظلمهـا. ولعـل مـن المناسـب أن نسـتخدم تشـبيه الأسـتاذ النورسـي رحمـه الله حـول الألمـاس والقطـع الزجاجية، فأصـحاب الـوهم غفلـوا عـن ألمـاس الرسـائل، وظنوهـا قطعـا زجاجيـة براقـة

فوقعوا في الخسارة الفادحة إلى جانب الظلم الشديد.

هذا الظلم ربما يكون سببا من أسباب إعراض كثير من الناس عن رسائل النور في العالم العربي، ومن هنا يأتي دور المنصفين الذين استضاءت قلوبهم وعقولهم وحياتهم بنور الرسائل التي هي رشحات من إعجاز القرآن الكريم.

الحديث عن رسائل النور مرتبط بالحديث عن بديع الزمان سعيد النورسي رحمه الله، ونلحظ إلحاح الأستاذ بديع الزمان في مرحلة سعيد الجديد على التواضع والتواري بعيدا؛ تثبيتا للإخلاص، ولذلك كان يدعو إلى التركيز على الرسائل لا على شخصه، ويحرص على الأنا الجماعية لا الأنا الفردية، وينسب فضلا كبيرا لفرسان النور الأوائل الذين كانوا السواعد التي امتدت لتنسخ رسائل النور وتنشرها في مرحلة خيم فيها الظلام وضعف الإيمان وكانت النفوس عطشى للنور كعطش الأرض للماء في أعقاب الخريف، بل إنه يكرر في أكثر من موضع ما يشير إلى أن رسائل النور ليست عملا فكريا تأليفيا مبنيا على المطالعة وأخذ أفكار العلماء والزيادة عليها ومحاورتها بل هي فيض من نور القرآن، ولننظر في شيء من أقواله هو في وصفها:

"ولله الحمد فإن رسائل النور قد أظهرت -حتى للعميان -

بتجارب كثيرة وحوادث عديدة أنها معجزة قرآنية تستطيع أن تنوّر هذا العصر، بل العصر المقبل. فمهما بالغتم في مدحها والثناء عليها فهي أهل لها وحقيق بها. إلاّ أن ما تولونه لي من اهتمام وحظ في هذا الأمر، لا أجد نفسي أهلاً له، ولو واحداً من الألف." (الملاحق ١٠٠).

"محاورة خطرت على القلب، كتبتها لتقويم الإفراط لدى قسم من إخوتي طلاب النور، لتعديل حسن ظنهم بما يفوق حدي بكثير" (الملاحق ١٣٣).

"إن مسائل رسائل النور ليست نابعة من العلم، وإعمال الفكر، وبالنية والقصد والإرادة، بل هي -بالأكثرية المطلقة- سانحات وظهورات قلبية وتنبيهات وإخطارات على القلب" (الملاحق ٢٠٥).

"إن رسائل النور في هذا العصر، وفي هذا الوقت بالذات عروة وثقى، أي سلسلة قوية لا تنقطع، وهي حبل الله، فمن استمسك به فقد نجا. إن رسائل النور برهان باهر للقرآن الكريم، وتفسير قيم له، وهي لمعة براقة من لمعات إعجازه المعنوي، ورشحة من رشحات ذلك البحر، وشعاع من تلك الشمس، وحقيقة ملهمة من كنز علم الحقيقة، وترجمة معنوية نابعة من

فيوضاته.." (الملاحق ص: ٢٢١).

"إن رسائل النور ليست كالمؤلفات الأخرى التي تستقي معلوماتها من مصادر متعددة من العلوم والفنون، فلا مصدر لها سوى القرآن، ولا أستاذ لها إلا القرآن، ولا ترجع إلا إلى القرآن.. ولم يكن عند المؤلف أي كتاب آخر حين تأليفها، فهي ملهمة مباشرة من فيض القرآن الكريم، وتتزل من سماء القرآن ومن نجوم آياته الكريمة..." (الملاحق ٢٢٠).

إن هذا التوصيف لرسائل النور يجعلنا نقترب من حقيقتها وهي أنها من العلم اللدني الذي يفيضه الله تعالى على قلوب عباده المؤمنين، ولا سيما أننا لسنا أمام كتاب عادي أو ذي موضوع دنيوي بل نحن أمام تفسير حي للقرآن الكريم، ومع رجل نذر حياته منذ مرحلتها الأولى للدفاع عن القرآن الكريم، متعه الله تعالى بذكاء حاد، وعبقرية متميزة، وذهن متميز، وعقل يستطيع به أن يحلق في آفاق المجرات، ويغوص به في أعماق الذرات، ومع ذلك نجده لا ينسب لنفسه فضلا بل يرد الأمر إلى الله تعالى وإلى تجليات أنوار القرآن الكريم في الرسائل.

لقد تميزت رسائل النور في تسميتها، فهي مجموعة من الرسائل التي تبحث كل رسالة منها زاوية من زوايا الوجود وجانبا

من جوانب الإيمان، وقضية من قضايا الإنسان التي لا يحدها زمان ولا يحجزها مكان، لتشكل بمجموعها كليات متكاملة تلبي ما يحتاج إليه الإنسان في رحلة الحياة وتقدم له الإجابات القرآنية لكل المعضلات والمشكلات وفي الوقت نفسه لا نجدها تسحبه خارج الحياة والمجتمع البشري قائلا: مالي وللناس!! بل تجعله في مجتمعه على هدى ونور، بل تجعله حاملا لنور الهداية لا يقدم الخير لمن حوله فحسب بل للإنسانية كلها. وتميزت رسائل النور كذلك بالأسماء الكلية التي انتظمت في مجلداتها: الكلمات، المكتوبات، اللمعات، الشعاعات، إشارات الإعجاز في مظان الإيجاز، المثنوي العربي، الملاحق، صيقل الإسلام، سيرة ذاتية.

إن مما يميز رسائل النور هذا الشمول الذي لم يترك جانبا إلا تحدث عنه، وهذه السعة في العلم والاطلاع ومواكبة مسيرة البشرية في رحلة اكتشاف الكون ومعرفة النظريات العلمية، حتى كأنها التطبيق العملي للدعوة التي ألح عليها الأستاذ بديع الزمان في مدرسة الزهراء التي تجمع بين العلوم العصرية والعلوم الشرعية فكانت هي بحق مدرسة زهراء في مجلداتها المختلفة.

لقد حلت رسائل النور كثيرا من المعضلات التي كانت تواجه المسلم لا في عصرنا هذا بل في عصور سابقة وجعلته يتسلح بالإيمان الحي العميق من جانب، وبالعقل الواعي المبصر الذي يرى الحقائق فيكون على بينة من أمره.

ومن الظواهر المهمة في رسائل النور تركيزها على إعجاز القرآن وبيان دلائل نبوة سيدنا محمد عليه وآله الصلاة والسلام، وهي قضية العصر بل قضية كل عصر لتقوم الحجة على الناس بكشف وجوه جديدة للإعجاز يعلم بها أهل العصر يقينا أن القرآن كتاب الله، وأن محمدا ﷺ رسول الله، ويزداد المؤمنون بذلك إيمانا.

إن مما يميز رسائل النور أنها تفتح باب التفكر والتدبر وتكشف ستار الألفة وتمزق حجاب الغفلة، وتكشف ما يختفي خلف ظواهر الأشياء ليرى الإنسان في كل شيء آية من آيات الله تعالى وتجليا من تجليات أسمائه الحسنى، وقد تكرر في الرسائل ذلك البيت الحكيم الذي يجب على كل إنسان أن يضعه نصب عينيه وينظر إلى الوجود من خلاله في رحلة تأمل وتدبر وتفكر دائمة مستمرة:

وفي كل شيء له آية　　　تدل على أنه واحد

رسائل النور منجم متعدد المواد تعدد آيات الله في الوجود، يردها كل قارئ ويصدر عنها بما يتفق مع طبيعته ووجهته وما له من اختصاص على منهج ﴿فَسَالَتْ أَوْدِيَةٌۢ بِقَدَرِهَا﴾ [الرعد: ١٧].

وقد كنت وأنا أقرأ في بعض الرسائل أتلمس نظرية التصوير الفني التي كتب عنها سيد قطب كتابه "التصوير الفني في القرآن ".

وتجد وأنت تقرأ التفسير "إشارات الإعجاز" تطبيقا رائعا لنظرية النظم التي صاغها عبد القاهر الجرجاني، وتجد في رسائل النور ذلك الذوق الفني الرفيع والأسلوب البديع، والقدرة اللغوية الهائلة في إدراك أسرار العربية، وذلك الخيال المجنح الذي يرقى بك في آفاق اللغة، وذلك الأسلوب الشعري الذي يطوف بك في أودية الجمال، إلى جانب العمق الذي يجعلك في بعض الأحيان مضطرا إلى القراءة المتأنية المتكررة لتقف على مرامي المعاني.

إن ما في رسائل النور من الآفاق الممتدة، والأمداء الرحبة هي من آثار كونها تفسيرا للقرآن الكريم، فأنت في القرآن الكريم وفي الرسائل (تفسيره) ترحل في الوجود لتلامس عالم الغيب وتعيش مع الملائكة المقربين، وترى الجنة والنار وما فيهما مما أعد لأهل كل منها، وأنت كذلك في رحلة ممتعة تحتاج إلى قدرة

غير محدودة من التصور والتخيل وتشغيل كل قوى الإنسـان الـتي تساعد على إدراك آيات الله في الوجود المشهود، تلك الآيـات الـتي لا يحـدها حد، ولا يحصيها عد. أنت في رسـائل النـور مـع التـاريخ ومعضــلاته، والفكر ومشــكلاته، والنفس وأطوارها، والحاضـر وتعقيداته، والتأخر وأسبابه، والتقدم وعوامله والسياسة وألاعيبها التي يكشفها النور القرآني، والفتن وأشراط الساعة وما دل عليها من أحاديث مع تأويل لها وتقريب للفهم.

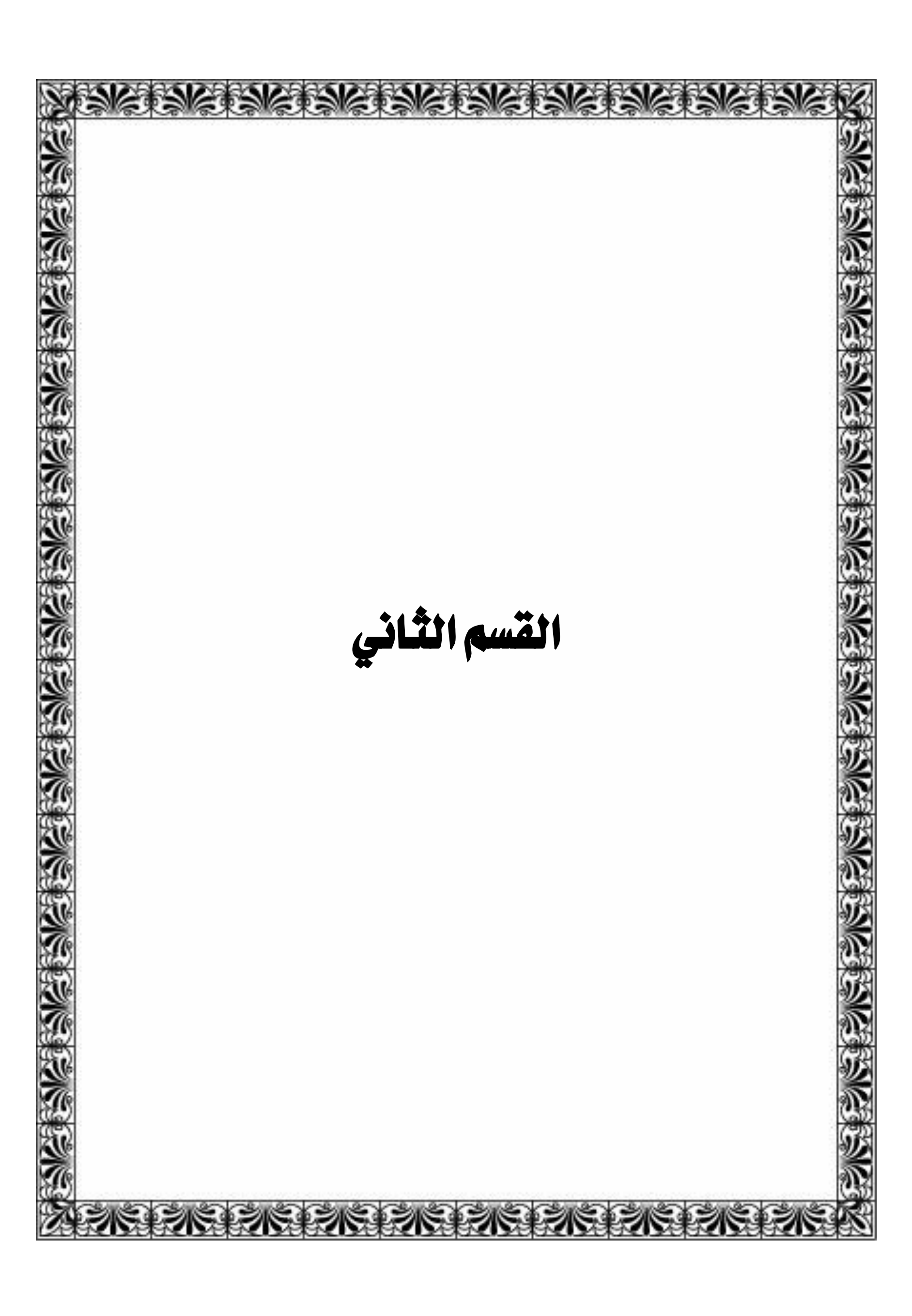
إن رسائل النور ليست (عملـة) تركيـة تخص مسلمي العـالم التركـي، بـل هـي بضـاعة ربانيـة المنشـأ قرآنيـة المصدر، إنسـانية الأفق والامتداد، ومن هنا أجد أن هناك واجبا على كل من استنار قلبه وعقله وحياته بها أن يهديها إلى مـن لم يعـرف ويكشـفها لمـن لم يكتشفها، فهي ليست من الكمالات بل من الضروريات فهي كـالخبز والهـواء والمـاء للإنسـان الـذي يبحـث عـن نـور الإيمـان وهداية ترافقه في الدنيا والآخرة.

لقد قـرأت لكثير مـن العلمـاء والـدعاة ولكنني أصدقكم القول أنما وجدته في رسائل النور يمتاز بالتفرد، ففيها ما لا تجده في غيرها المؤلفات من العلم وألوان الفهم، وأبواب التدبر التي تفتح لك لتجد نفسك في تجليات الأسماء الحسنى وترى حقيقـة الوجـود والكون والحياة.

وكلمة أخيرة أوجهها للباحثين في رسائل النور بحثا أكاديميا، أقول: إن للبحوث الأكاديمية شروطا وتعقيدات وغايات قد تحرف الباحث عن المنهج الذي تخطه رسائل النور، أعني منهج الإخلاص ونكران الذات، ولذلك لا بد من الحذر وتفقد النية مع الوفاء بالشروط الموضوعية للبحوث الأكاديمية. وكلمة أخرى في الباب نفسه في شأن البحوث المحكمة، والمجلات المحكمة، وليعذرني الأكاديميون، فأنا سيّئ الظن بها وأطلق على كثير منها اسم البحوث المحنطة والمجلات المحنطة، لأنها في الغالب لا تكون موجهة لعامة القراء بل لخاصتهم بل خاصة خاصتهم، ولا تقرأ إلا لغايات بحثية، ذلك لأن أكثر هذه البحوث تنشر لتحصيل درجات السلم الأكاديمي، وتتوارى النية الصادقة المرتبطة بالله من كثير منها إلا ما رحم ربي، ولذلك لابد من الحذر أيضا في هذا المجال.

إنني أحس بسعادة غامرة وأنا ألتقي المشاركين في هذه الندوة من شيوخ وشباب، وأسأل الله تعالى أن يتقبل من الجميع أعمالهم ويصلح نياتهم، إنه سميع مجيب.

والحمد لله رب العالمين.



القسم الثاني

رسائل النور وصاحبها

رسائل النور هي التراث الذي ألفه الأستاذ بديع الزمان سعيد النورسي، رحمه الله، وهو داعية الإسلام الكبير في العالم التركي ابتداء، ذلك الداعية المجدد الذي سخره الله تعالى للوقوف في وجه المد العلماني الجارف الذي أرد أن يسلخ تركيا عن جذورها ويرسم لها واقعا ومستقلا منقطعين عن تلك الجذور.

ولد الأستاذ سعيد النورسي، رحمه الله، في عام ١٢٩٣ هجرية الذي يوافقه عام ١٨٧٦ ميلادية في قرية نورس في جنوب شرقي تركيا لأبوين صالحين، وقد وهبه الله تعالى ذكاء حادا وحافظة قوية جعلته منذ طفولته يقبل على العلم حتى استطاع في سنوات محدودة أن يستوعب عددا كبيرا من أمهات الكتب حفظا عن ظهر قلب، ولم يكتف بالعلوم الشرعية بل امتدت مطالعته إلى العلوم العصرية، وقد كان من آثار نبوغه المبكر أن لقبه علماء منطقته ببديع الزمان.

وكان من المنعطفات المهمة في حياته وصول كلمة غلادستون الوزير البريطاني إليه، الذي قال إنه لا بقاء لبريطانيا في ديار المسلمين ما بقي القرآن الكريم في قلوب المسلمين

وحياتهم ولذلك يجب نزعه منهم، وكان الرد لدى بديع الزمان، رحمه الله، أن قال: "لأبرهنن للعالم بأن القرآن شمس معنوية لا يخبو سناها ولا يمكن إطفاؤها"(سيرة حياة ص٦٦) وجعل القرآن محور حياته، والنهضة بالمسلمين وجهته.

وكان من آثار ذلك أنه توجه إلى إستانبول وعرض على السلطان عبد الحميد، رحمه الله، إنشاء جامعة في شرق الأناضول باسم مدرسة الزهراء تكون ميدانا لتدريس العلوم الدينية والشرعية معا ليقدم النموذج الذي ينهض به المسلمون مما كانوا فيه من حال تخلف.

وعندما قامت الحرب العالمية الأولى كان الأستاذ النورسي، رحمه الله، وتلاميذه من المجاهدين المدافعين عن ديار الإسلام، وقد جرح في الحرب ووقع في أسر الروس لمدة سنتين وعدة أشهر واستطاع أن يفلت من الأسر. ولما عاد إلى تركيا لقي الإكرام والاحترام وعين عضوا في هيئة كبار العلماء التي كانت تسمى دار الحكمة الإسلامية.

وقد بدأت لديه مرحلة وعي جديدة كان مبعثها ظهور الشيب في شعره فأيقظ ذلك لديه التفكر في سر الموت، وبدأ مرحلة مخاض فكري عميق انتهى به إلى مرحلة سماها بسعيد

الجديد تمييزا عن المرحلة السابقة التي سماها بسعيد القديم. وتلا ذلك ما وقع في تركيا من إلغاء للسلطنة والخلافة وسعي إلى تغيير هوية تركيا وخلعها من جذورها الإسلامية، وتعرض الأستاذ النورسي، رحمه الله، للمساومة من أصحاب السلطة وعرض عليه مصطفى كمال أن يكون مفتيا لشرق الأناضول ونائبا في مجلس المبعوثان براتب كبير وامتيازات مغرية لكن الله نور قلبه وكان أن اختار الطريق الصعب طريق البعد عن السياسة وأهلها في ذلك الزمان ليعمل على إحياء الإيمان في القلوب، ويقف في وجه الموجة العاتية، ولم يكن ذلك إيثارا منه للسلامة بل سيرا في طريق الحق. ولم يسلم من الأذى مع اختياره هذا الطريق فقد تعرض للنفي والإقامة الجبرية وقدم للمحاكمة مرات كثيرة، وسجن وتعرض للسم في السجن أكثر من مرة لأن أعداء الإسلام أدركوا الخطر القادم من منهجه فحاولوا وضعوا العراقيل في طريقه.

وقد يسر الله تعالى للأستاذ النورسي، رحمه الله، أن يكتب رسائل النور وهي التراث العظيم الذي تركه من بعده، يسر الله له ذلك تحت الحصار والمراقبة والمطاردة والمحاكمة، وسخر الله له من الناس من كان يأخذ تلك الرسائل وينسخها، وكانت تنسخ بأعداد كبيرة قبل أن تطبع، وكان

الناس يتداولونها ويتدارسونها وتنير قلوبهم وحياتهم، وتبدد الظلام الذي خيم على تركيا في تلك المرحلة. وكان لرسائل النور الأثر الأكبر في النهضة الإسلامية التركية الحديثة التي تجلت بعض آثارها في عالم السياسة والاقتصاد وفي المجتمع، والآتي بإذن الله أعظم وأكثر وضوحا.

تزيد رسائل النور عن مئة وثلاثين رسالة، وتقع في تسعة مجلدات هي: الكلمات والمكتوبات واللمعات والشعاعات وإشارات الإعجاز والمثنوي العربي النوري والملاحق وصيقل الإسلام وسيرة ذاتية، وصنع للرسائل جزء عاشر هو فهرس تحليلي عام أعده حازم ناظم فاضل.

عرف الأستاذ النورسي، رحمه الله، رسائل النور فبين أنها:

"برهان باهر للقرآن الكريم وتفسير قيم له وهي لمعة براقة من لمعات إعجازه المعنوي، ورشحة من رشحات ذلك البحر وشعاع من تلك الشمس وحقيقة ملهمة من كنز علم الحقيقة وترجمة معنوية نابعة من فيوضاته".

ولا بد من التنبيه إلى أن الأستاذ النورسي رحمه الله نشأ نشأة صوفية لكنه لم ينشئ طريقة صوفية ولم يحرص على لقاء تلاميذه بل كان يرى أن العصر الذي نحن فيه بحاجة إلى من

يتتلمـذون علـى القـرآن ويعيشـون حيـاة الصـحو لا حيـاة العشـق والسـكر والجذب، ولذلك قال في رسائل النور:

"إن رسائل النور ليست طريقة صوفية بل حقيقـة، وهـي نـور مفاض من الآيات القرآنية ولم تستق من علوم الشرق ولا من فنون الغرب بل هي معجزة معنوية للقرآن الكريم خاص لهذا الزمان"

إنك وأنت تقرأ في رسائل النـور تحس أنـك أمـام قلب اسـتنار بنور القرآن فصار مرآة تشع عليك أنـواره، وتحس أنـك أمـام عقـل استطاع استيعاب هـذا الكـون مـن الـذرات إلى المجـرات، يحملك مـن أعمـاق الخليـة إلى آفـاق الأفلاك، تحـس أنـه يخاطـب قلبـك وعقلك وكينونتك ويفتح لـك نوافـذ الحقـائق ويزيل عـن حواسـك أغشية الحجب.

وفي هذه السلسة من المقالات التي نشرت في جريدة الدسـتور في شـهر رمضـان المبـارك ١٤٣١هــ وأذيعـت في إذاعــة القــرآن الكـريم/عمـان نقـف علـى محطـات في هـذه الرسـائل، ونعيش في ظلالها لنـرى كيـف صـور لنـا بـديع الزمان، رحمـه الله، عـددا مـن القضايا والمسائل ومن أراد الاطلاع على الرسائل فهي متاحة علـى الإنترنـت ومـا عليـك إلا أن تبحـث عـن: رسـائل النـور أو سـعيد النورسي.

فضائل الابتلاء

لا تخلو الحياة من ألوان الابتلاء، فمنها ابتلاء بالخير ومنها ابتلاء بالشر. ويختلف الناس في نظرتهم إلى ألوان الابتلاء، فمنهم من يقابل الابتلاء بالنعمة بالبطر والاستعلاء على عباد الله تعالى بدلا من الشكر، ويقابل الابتلاء بالضر بالجزع والضجر بدل الصبر، أما المؤمن الحقيقي الذي عرف ربه وعرف نفسه وعرف حقيقة دنياه وامتلك الرؤية الشاملة للوجود ظاهرا وباطنا، غيبا وشهادة، فله موقف آخر.

إنه موقف العبد الذي يعلم أن ما أصابه من خير ففضل من ربه؛ عليه أن يشكره، وما أصابه من شر أو ضر؛ فامتحان من ربه عليه أن يصبر عليه، وهو في الحالين على خير إن صبر وإن شكر.

وكم من الناس من ينجح في ابتلاء الضراء ويخفق في ابتلاء السراء؛ ذلك أن حظ النفس في ابتلاء السراء أكبر، وحجاب الغفلة في ابتلاء السراء أكثف، وإحساس الإنسان بالحاجة إلى ربه في الضراء أوضح منه من حاجته إليه في السراء؛ لما يلقيه عليه ابتلاء السراء من وهم الاستغناء بما لديه من ألوان العطاء.

وكم كان الابتلاء بالضراء سائقا للعبد إلى باب ربه على

مركب الحاجة، وعلى بساط التضرع ومن باب الإحساس بالضعف والعجز.

وقد نبه الأستاذ بديع الزمان النورسي، رحمه الله تعالى، إلى هذه القضية في كتاب اللمعات وقال كلاما نفيسا أقف على بعضه لعل فيه ما يخفف من آثار الابتلاء بألوانه المختلفة التي لا يكاد ينجو منها أحد في هذه الدنيا.

قال رحمه الله مرشدا إلى كيفية استقبال الابتلاء وامتصاص أثره السلبي:

"إن الإنسان مثلما يخفف حدَّة خصمه باستقباله بالبشر والابتسامة، فتتضاءل سَورة العداوة وتنطفىء نار الخصومة، بل قد تنقلب صداقةً ومصالحة، كذلك الأمر في استقبال البلاء بالتوكل على القدير يذهبُ أثره." (اللمعات ١٨)

ما أجمله من إرشاد، ألا نرى أن من وضع الهم أمامه وأطال التفكير فيه تضاعف همه وامتد أثره وأحاط بصاحبه، وأن من تعايش معه وتقبله تخف حدته ويتراجع أثره، وكم يخف أثر الابتلاء حين ينظر إليه الإنسان على أنه هدية من ربه الحكيم الذي يبتليه لا للابتلاء نفسه بل ليجعل الابتلاء معراجا له إلى رضوان الله تعالى. أولا يكفينا ما بينه ربنا سبحانه من فضل

الصبر على الابتلاء، ذلك الفضل المدخر عنده في دار الخلود: ﴿إِنَّمَا يُوَفَّى ٱلصَّٰبِرُونَ أَجْرَهُم بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾.

يقول الأستاذ النورسي، رحمه الله، في بيان بعض فضائل الابتلاء التي رآها ويراها غيره عند التدبر:

"إن لكل زمان حُكمه، وقد غيّر البلاء شكله في زمن الغفلة هذا، فلا يكون البلاء بلاء عند البعض دوماً، بل إحساناً إلهياً ولطفاً منه سبحانه. وأرى المبتلين بالضر في هذا الوقت محظوظين سعداء بشرط ألا يمس دينهم، فلا يولّد المرض والبلاء عندي ما يجعلهما مضرين في نظري حتى أعاديهما، ولا يورثانني الإشفاق والتألم على صاحبهما، ذلك ما أتاني شاب مريض إلاّ وأراه أكثر ارتباطاً من أمثاله بالدين، وأكثر تعلقاً منهم بالآخرة.. فأفهم من هذا أن المرض بحق هؤلاء ليس بلاء، بل هو نعمة من نعمه سبحانه التي لا تعد ولا تحصى، حيث إن ذلك المرض يمد صاحبه بمنافع غزيرة من حيث حياته الأُخروية ويكون له ضرباً من العبادة، مع أنه يمس حياته الدنيا الفانية الزائلة بشيء من المشقة."(اللمعات ١٨ -١٩)

وكم رأينا من شاب كان يتقلب في أثواب النعمة ولكنه كان من الغافلين، فلما ابتلاه الله تعالى ببعض البلاء استنار

قلبه، وانقلبت حياته، وتغيرت وجهته فسخر ما آتاه الله تعالى في طاعة الله وصار عبدا ربانيا.

ويختم الأستاذ النورسي، رحمه الله، حديثه في هذا الأمر بكلام نفيس وتصوير بديع للكون والإنسان أدع القارئ الكريم يقف معه في تفكر وتدبر قال رحمه الله:

"إن الله سبحانه قد أدرج في الإنسان عجزاً لا حد له، وفقراً لانهاية له، إظهاراً لقدرته المطلقة، وإبرازاً لرحمته الواسعة. وقد خلقه على صورة معينة بحيث يتألم بما لا يحصى من الجهات، كما أنه يتلذذ بما لا يعد من الجهات، إظهاراً للنقوش الكثيرة لأسمائه الحسنى. فأبدعه سبحانه على صورة ماكنة عجيبة تحوي مئات الآلات والدواليب،لكل منها آلامها ولذائذها ومهمتها وثوابها وجزاؤها، فكأن الأسماء الإلهية المتجلية في العالم الذي هو إنسان كبير تتجلى أكثرها أيضاً في هذا الإنسان الذي هو عالم أصغر، وكما أن ما فيه من أمور نافعة – كالصحة والعافية واللذائذ وغيرها – تدفعه إلى الشكر، وتسوق تلك الماكنة إلى القيام بوظائفها من عدة جهات، حتى يغدو الإنسان كأنه ماكنة شكر. كذلك الأمر في المصائب والأمراض والآلام وسائر المؤثرات المهيجة والمحركة، تسوق

الدواليب الأخرى لتلك الماكنة إلى العمل والحركة وتثيرها من مكمنها فتفجّر كنوز العجز والضعف والفقر المندرجة في الماهية الإنسانية، فلا تمنح المصائبُ الإنسانَ الالتجاء إلى البارئ بلسان واحد، بل تجعله يلتجئ إليه ويستغيثه بلسان كل عضو من أعضائه، وكأن الإنسان بتلك المؤثرات والعلل والعقبات والعوارض يغدو قلماً يتضمن آلاف الأقلام، فيكتب مقدّرات حياته في صحيفة حياته أو في اللوح المثالي، وينسج لوحة رائعة للأسماء الإلهية الحسنى، ويصبح بمثابة قصيدة عصماء ولوحة إعلان.. فيؤدي وظيفة فطرته. (١٩ – ٢٠ كتاب اللمعات)

من أسرار الابتلاء

الابتلاء سنة من سنن الله تعالى في حياة البشر، فقد خلقهم لعبادته، وابتلاهم بألوان من أعمال الفعل والترك والسلب والتغيير، كل ذلك لينكشف المعدن الخفي للنفوس، فليس كل ظاهر من الأحوال دالا على الحقيقة الباطنة للإنسان.

وقد جاء الحديث عن ابتلاء الإنسان في القرآن الكريم في كثير من الآيات والابتلاء يعني: الامتحان الذي يكشف الجوهر ومن الآيات الكريمة التي حدثتنا عن الابتلاء قوله تعالى في سورة الكهف:

﴿إِنَّا جَعَلْنَا مَا عَلَى ٱلْأَرْضِ زِينَةً لَّهَا لِنَبْلُوَهُمْ أَيُّهُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا﴾ (الكهف/ ٧).

فكل ما على الأرض من الأشياء المسخرة للإنسان هي وسيلة من وسائل الابتلاء بكشف أي الناس أحسن عملا، والأحسن عملا هو الذي يكون عمله صالحا وتكون نيته خالصة لوجه الله تعالى، وقد جاء بيان هذا الأمر في نهاية سورة الكهف في قوله تعالى:

﴿فَمَن كَانَ يَرْجُوا۟ لِقَآءَ رَبِّهِۦ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَٰلِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِۦٓ أَحَدًۢا﴾ (الكهف/١١٠).

كما جاء بيان حال الذين هم في الموقف المضاد لمن يحسن عملا وهم الذين سماهم القرآن الكريم: (الأخسرين أعمالا) وبين حالهم في قوله تعالى:

﴿قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُم بِٱلْأَخْسَرِينَ أَعْمَٰلًا ﴿١٠٣﴾ ٱلَّذِينَ ضَلَّ سَعْيُهُمْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا﴾ (الكهف/ ١٠٣ – ١٠٤).

وليس كل ما على الأرض مما هو مسخر للإنسان مجال ابتلاء فحسب بل إن الموت والحياة أيضا هما مجال من مجالات الابتلاء، فالحياة بكونها وجودا ملموسا ظاهرا في عالم الشهادة، وبما يترتب عليها من مسؤوليات، والموت بكونه أخذا وفقدا وتغييبا هو كذلك ميدان من ميادين الابتلاء، وكم من الناس من ينجح في ابتلاء الحياة حتى إذا أصاب الموت بعض أهله كان منه الجزع ولم ينجح في الابتلاء، وهذا المعنى مضمن في قوله تعالى:

﴿تَبَٰرَكَ ٱلَّذِى بِيَدِهِ ٱلْمُلْكُ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿١﴾ ٱلَّذِى خَلَقَ

ٱلْمَوْتَ وَٱلْحَيَوٰةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا ﴾ (الملك/١-٢).

وقد تحدثت بعض الآيات عن ابتلاء الإنسان بالخير والشر عموما ومن ذلك قوله تعالى:

﴿ كُلُّ نَفْسٍ ذَآئِقَةُ ٱلْمَوْتِ ۗ وَنَبْلُوكُم بِٱلشَّرِّ وَٱلْخَيْرِ فِتْنَةً ۖ وَإِلَيْنَا تُرْجَعُونَ ﴾.

وجاء تفصيل لهذا الابتلاء في سورة الفجر في قوله تعالى:

﴿ فَأَمَّا ٱلْإِنسَٰنُ إِذَا مَا ٱبْتَلَىٰهُ رَبُّهُۥ فَأَكْرَمَهُۥ وَنَعَّمَهُۥ فَيَقُولُ رَبِّىٓ أَكْرَمَنِ ﴿١٥﴾ وَأَمَّآ إِذَا مَا ٱبْتَلَىٰهُ فَقَدَرَ عَلَيْهِ رِزْقَهُۥ فَيَقُولُ رَبِّىٓ أَهَٰنَنِ ﴾ (الفجر/ ١٥ – ١٦).

فمن ألوان الابتلاء العطاء والإغناء بأنواع المال وصنوف النعم، والآية تصحح ما هو شائع بين الناس من أن العطاء والإغناء علامة المحبة والرضا، وأن قلة الرزق وضيق العيش علامة غضب، فما هو شائع بين الناس من هذه المعاني غير صحيح، والصحيح أن الغني يبتلى بالغنى ليرى الله تعالى من عبده أيشكر أم يبطر؟ والفقير يبتلى بالفقر ليرى ربه سبحانه أيصبر أم يضجر؟.

وقد قدم لنا القرآن نماذج عملية عن الصنفين: الذي يشكر على النعمة والذي يبطر بها.

ومن الشاكرين يوسف عليه السلام بعد أن تمت النعمة عليه وعلى آل يعقوب، والتقى الإخوة بعد أن نزغ الشيطان بينهم فانطلق لسانه بالشكر قائلا:

﴿رَبِّ قَدْ ءَاتَيْتَنِى مِنَ ٱلْمُلْكِ وَعَلَّمْتَنِى مِن تَأْوِيلِ ٱلْأَحَادِيثِ ۚ فَاطِرَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ أَنتَ وَلِىِّۦ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ ۖ تَوَفَّنِى مُسْلِمًا وَأَلْحِقْنِى بِٱلصَّٰلِحِينَ﴾ (يوسف/ ١٠١).

ومثله ما كان من سليمان عليه السلام حين رأى عرش ملكة سبأ بين يديه فرأى آية من آيات نعم الله عليه:

﴿قَالَ ٱلَّذِى عِندَهُۥ عِلْمٌ مِّنَ ٱلْكِتَٰبِ أَنَا۠ ءَاتِيكَ بِهِۦ قَبْلَ أَن يَرْتَدَّ إِلَيْكَ طَرْفُكَ ۚ فَلَمَّا رَءَاهُ مُسْتَقِرًّا عِندَهُۥ قَالَ هَٰذَا مِن فَضْلِ رَبِّى لِيَبْلُوَنِىٓ ءَأَشْكُرُ أَمْ أَكْفُرُ ۖ وَمَن شَكَرَ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِۦ ۖ وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ رَبِّى غَنِىٌّ كَرِيمٌ﴾ (النمل/ ٤٠).

ومن ألوان الابتلاء ما يكون بين الناس من علاقات ينتج عنها بعض المعاناة **لأن لكل إنسان طبعه وشخصيته ونظرته، والمطلوب الصبر على هذا اللون من الابتلاء حتى تمضي الحياة رخاء لا يشوبها النكد، وهذا ما نفهمه من قوله تعالى:**

﴿وَجَعَلْنَا بَعْضَكُمْ لِبَعْضٍ فِتْنَةً أَتَصْبِرُونَ ۗ وَكَانَ رَبُّكَ بَصِيرًا ﴾ (الفرقان/٢٠).

ومنه الابتلاء الذي يكون نتيجة اختلاف الناس في الوجهة وانقسامهم بين مؤمن وكافر، وما ينتج عن ذلك من وقوف أهل الكفر في طريق الإيمان لرد المؤمنين عن دينهم أو لمنعهم من نشر دين الله وتبليغ رسالته، مما يؤدي إلى الفتنة والابتلاء بالقتال لرد أهل الكفر عن غيهم،وهذا ما تبينه الآية الكريمة من سورة محمد ﷺ في قوله تعالى:

﴿ فَإِذَا لَقِيتُمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فَضَرْبَ ٱلرِّقَابِ حَتَّىٰٓ إِذَآ أَثْخَنتُمُوهُمْ فَشُدُّوا۟ ٱلْوَثَاقَ فَإِمَّا مَنًّۢا بَعْدُ وَإِمَّا فِدَآءً حَتَّىٰ تَضَعَ ٱلْحَرْبُ أَوْزَارَهَا ۚ ذَٰلِكَ وَلَوْ يَشَآءُ ٱللَّهُ لَٱنتَصَرَ مِنْهُمْ وَلَٰكِن لِّيَبْلُوَا۟ بَعْضَكُم بِبَعْضٍ ۗ وَٱلَّذِينَ قُتِلُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ فَلَن يُضِلَّ أَعْمَٰلَهُمْ ﴾ (محمد/٤).

فالله تعالى قادر على نصرة المؤمنين بتسخير بعض جنوده من غير البشر بل بكلمة كن، ولكنه يبتلي المؤمنين ليكون منهم المجاهدون ويتخذ منهم الشهداء.

ومن ألوان الابتلاء ابتلاء الفقد بعد العطاء في المال والأنفس وأشياء الدنيا المختلفة، تلك الأشياء التي ابتلى الله بها الناس عندما أعطاهم إياها، ويبتليهم بأخذها منهم. ومن الناس من يصبر عليها ومنهم من يجزع ويضجر، وهذا ما تحدث عنه قول الله تعالى:

﴿ وَلَنَبْلُوَنَّكُم بِشَيْءٍ مِّنَ ٱلْخَوْفِ وَٱلْجُوعِ وَنَقْصٍ مِّنَ ٱلْأَمْوَٰلِ وَٱلْأَنفُسِ وَٱلثَّمَرَٰتِ ۗ وَبَشِّرِ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿١٥٥﴾ ٱلَّذِينَ إِذَآ أَصَٰبَتْهُم مُّصِيبَةٌ قَالُوٓا۟ إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّآ إِلَيْهِ رَٰجِعُونَ ﴿١٥٦﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَٰتٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ ۖ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُهْتَدُونَ ﴾ (البقرة/١٥٥ - ١٥٧).

وما أعمقه من قول يردده المؤمن في مواجهة الابتلاء:

﴿إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّآ إِلَيْهِ رَٰجِعُونَ﴾.

فنحن وما نملك من الله وإلى الله، فكيف نسخط على صاحب الأمر حين يأخذ مما آتانا ما يريد؟ وهذا يذكرنا بالهدي النبوي في التعزية بقول: "إن لله ما أخذ وله ما أعطى وكل شيء عنده بأجل مسمى" (حديث متفق عليه).

ولعل سائلا يسأل لم كان الابتلاء بألوان الفقد التي قد تبدو شرورا في ظاهرها؟ وقد أجاب عن ذلك العالم الرباني الأستاذ سعيد النورسي، رحمه الله: (لِمَ يبتلي الغني المستغني الجميل المطلق الرحيم المطلق الخير المطلق، أفراداً ضعفاء بالمصائب والشرور والقبائح؟

الجواب: إن جميع أنواع البر والحسن والنعم آتية مباشرة من خزينة رحمة ذلك الجميل المطلق والرحيم المطلق، ويرد من فيض إحسانه الخاص. أما المصائب والشرور فهي نتائج جزئية قليلة فردية من بين كثير من النتائج المترتبة على قوانينه العامة والكلية، قوانين سلطان ربوبيته التي تمثل الإرادات الكلية الجارية تحت اسم نواميس الله وعاداته، فتصبح تلك الأمور من المقتضيات الجزئية لجريان تلك القوانين. لذا فلأجل الحفاظ على تلك القوانين ورعايتها والتي هي مبعث المصالح الكلية ومدارها يخلق -سبحانه -تلك النتائج الجزئية ذات الشرور. ولكن تجاه تلك النتائج الجزئية الأليمة يستغيث ويستنجد الأفراد الذين ابتلوا بالمصائب والذين نزلت بهم البلايا فيمدّهم بإمداداته الخاصة الرحمانية، ويحسن إليهم بإحساناته الخصوصية الربانية. فيظهر بهذا أنه الفاعل المختار، وأن كل شأن في كل شيء وثيق الصلة

بمشـيئته تعـالى،وأن قوانينـه العامـة أيضـاً تابعـة دائمـاً لإرادتـه واختياره، وأن رباً رحيما يسمع نداء الـذين يعـانون مـن ضيق تلـك القـوانين العامـة فيغيـثهم ويمـدّهم بإحسـانه علـيهم. وأنـه بهـذه الإحسـانات الخصوصـية والتـوددات الخصوصـية قـد فـتح أبـواب تجلياته الخصوصية حيث قد فتح ميداناً لا يحد ولا يقيد لتجليات الأسمـاء الحسـنى غـير المقيـدة وغـير المحدودة،بشـواذ النـواميس الكليـــة والقـــوانين العامـــة ونتائجهـــا الجزئيـــة ذات الشرور."(الشعاعات ص٣٨)

نظرات في ابتلاء أيوب عليه السلام

حدثنا ربنا سبحانه وتعالى في كتابه الكريم عن الأحوال المختلفة للإنسان، وفي كل موقف أو خبر دروس عظيمة علينا ألا نمر بها مرور الكرام بل نقف عندها وقفات التدبر والتفكر لنرى أنفسنا وحياتنا في نورها، وتتحقق الفائدة من روايتها. ومن تلك المواقف ما رواه لنا القرآن الكريم عن أيوب عليه السلام وما أصابه من ابتلاء في الجسد والولد فصبر بل غدا مثال الصبر وعنوانه.

وقد وقف العالم الرباني الأستاذ بديع الزمان النورسي على مناجاة أيوب عليه السلام فقال معقبا على دعاء أيوب عليه السلام:

﴿وَأَيُّوبَ إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُۥٓ أَنِّي مَسَّنِيَ ٱلضُّرُّ وَأَنتَ أَرْحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ﴾ (الأنبياء/٨٣).

"هذه المناجاة اللطيفة التي نادى بها رائد الصابرين سيدنا أيوب عليه السلام مجرّبة، وذات مفعول مؤثر، فينبغي أن نقتبس من نور هذه الآية الكريمة ونقول في مناجاتنا: (رب إني مسني

الضر وأنت أرحم الراحمين).

إنه عليه السلام ظل صابراً ردحاً من الزمن يكابد ألم المرض العضال، حتى سرت القروح والجروح إلى جسمه كله، ومع ذلك كان صابراً جلداً يرجو ثوابه العظيم من العلي القدير... وتضرع إلى ربه الكريم بهذه المناجاة الرقيقة: ﴿أَنِّي مَسَّنِيَ ٱلضُّرُّ وَأَنتَ أَرۡحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ﴾.... فاستجاب الله العلي القدير تلك المناجاة الخالصة الزكية استجابة خارقة بما هو فوق المعتاد، وكشف عنه ضرّه وأحسن إليه العافية التامة وأسبغ عليه ألطاف رحمته العميمة). (اللمعات ص١٠).

ويمضي الأستاذ بديع الزمان النورسي، رحمه الله، ليربط بين حال أيوب عليه السلام وما أصابه من ابتلاء في بدنه وأهله وحياتنا نحن وما فيها من ألوان الأسقام القلبية التي قد لا تبدو للناظرين فيقول: "إنه إزاء تلك الجروح الظاهرة التي أصابت سيدنا أيوب عليه السلام، توجد فينا أمراض باطنية وعلل روحية وأسقام قلبية، فنحن مصابون بكل هذا. فلو انقلبنا ظاهراً بباطن وباطناً بظاهر، لظهرنا مُثقلين بجروح وقروح بليغة، ولبدت فينا أمراضٌ وعلل أكثر بكثير مما عند سيدنا أيوب عليه

السلام، ذلك لأن:

كل ما تكسبه أيدينا من إثم، وكل ما يلج إلى أذهاننا من شبهة، يشق جروحاً غائرة في قلوبنا، ويفجر قروحاً دامية في أرواحنا.. "(اللمعات ص١١).

ويوازن بين الجروح المادية التي أصابت جسد أيوب عليه السلام مع سلامة قلبه الذي لم يتغير ويقينه الذي لم يتبدل بل كان من الصابرين المأجورين، وحال كثير منا من الذين يعانون من الجروح القلبية والروحية التي لدينا وتهدد مصيرنا الأخروي فيقول:" ثم إن جروح سيدنا أيوب عليه السلام كانت تهدد حياته الدنيا القصيرة بخطر، أما جروحنا المعنوية نحن فهي تهدد حياتنا الأخروية المديدة بخطر.. فنحن إذن محتاجون أشد الحاجة إلى تلك المناجاة الأيوبية الكريمة بأضعاف أضعاف حاجته عليه السلام إليها. وبخاصة أن الديدان المتولدة من جروحه عليه السلام مثلما أصابت قلبه ولسانه، فإن الوساوس والشكوك – نعوذ بالله – المتولدة عندنا من جروحنا الناشئة من الآثام والذنوب تصيب باطن القلب الذي هو مستقر الإيمان فتزعزع الإيمان فيه، وتمس اللسان الذي هو مترجم الإيمان فتسلبه لذة الذكر ومتعته الروحية، ولا تزال تنفره من ذكر الله

حتى تسكته كلياً.

نعم، الإثم يتوغل في القلب ويمد جذوره في أعماقه، وما ينفك ينكت فيه نكتاً سوداء حتى يتمكن من إخراج نور الإيمان منه، فيبقى مظلماً مقفراً، فيغلظ ويقسو.

نعم، إن في كل إثم وخطيئة طريقاً مؤدياً إلى الكفر، فإن لم يمح ذلك الإثم فوراً بالاستغفار يتحول إلى دودة معنوية، بل إلى حية معنوية تعض القلب وتؤذيه. "(اللمعات ص١١).

ويمضي الأستاذ بديع الزمان النورسي، رحمه الله، في بيان أحوال الإنسان مع الآثام المختلفة، الآثام التي يرتكبها سرا، وما كان منها من الكبائر وما قد تؤدي إليه من إنكار بعض حقائق الإيمان هذا الإنكار الذي هو ثمرة من ثمرات المعاصي فيقول رحمه الله: "إن الذي يرتكب سراً إثماً يخجلَ منه، وعندما يستحي كثيراً من اطلاع الآخرين عليه، يثقل عليه وجود الملائكة والروحانيات، ويرغب في إنكارهم بأمارة تافهة." (اللمعات ص ١١).

وحديث الأستاذ هذا؛ يشير إلى أن الإنسان المذنب سرا يتمنى ألا يكون عليه من الملائكة رقيب عتيد يسجل ما يفعل فكأنه يتمنى انعدامهم وذلك نوع من الإنكار لوجودهم.

ويتحدث عن حال مرتكب الكبيرة فيقول: "إن الذي يقترف كبيرة تفضي إلى عذاب جهنم. إن لم يتحصن تجاهها بالاستغفار، فما إن يسمع نذير جهنم وأهوالها يرغب من أعماقه في عدم وجودها، فيتولد لديه جرأة لإنكار جهنم من أمارة بسيطة أو شبهة تافهة. "(اللمعات ص١١).

"ومثلاً: إن الذي لايقيم الفرائض ولا يؤدي وظيفة العبودية حق الأداء وهو يتألم من توبيخ آمره البسيط لتقاعسه عن واجب بسيط، فإن تكاسله عن أداء الفرائض إزاء الأوامر المكررة الصادرة من الله العظيم، يورثه ضيقاً شديداً وظلمة قاتمة في روحه، ويسوقه هذا الضيق إلى الرغبة في أن يتفوه ويقول ضمناً: (ليته لم يأمر بتلك العبادة!) وتثير هذه الرغبة فيه الإنكار، الذي يشم منه عداءً معنوياً تجاه ألوهيته سبحانه، فإذا ما وردت شبهةٌ تافهة إلى القلب حول وجوده سبحانه، فإنه يميل إليها كأنها دليل قاطع. فينفتح أمامه باب عظيم للهلاك والخسران المبين، ولكن لا يدرك هذا الشقي أنه قد جعل نفسه – بهذا الإنكار – هدفاً لضيق معنوي أرهب وأفظع بملايين المرات من ذلك الضيق الجزئي الذي كان يشعر به من تكاسله في العبادة، كمن يفرّ من لسع البعوض إلى عض الحية!! "(اللمعات ١١ -١٢).

ويربط رحمه الله بين هذا الفهم الذي ألقاه الله تعالى في قلبه في تأمله لحال أيوب عليه السلام وآثار المعاصي في القلب فيقول: "فليُفهم في ضوء هذه الامثلة الثلاثة سرّ الآية الكريمة:

﴿ كَلَّا بَلْ رَانَ عَلَىٰ قُلُوبِهِم مَّا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴾ (المطففين/ ١٤)"(اللمعات ص ١٢)

ويبين الأستاذ بديع الزمان النورسي، رحمه الله، أنه لا يحق للإنسان أن يشكو مما يصيبه من ألوان البلاء من مرض وغيره ويرتكز في هذا القول على أوجه ثلاثة:

"الوجه الاول: أن الله سبحانه يجعل ما ألبسه الإنسان من لباس الوجود دليلا على صنعته المبدعة، حيث خلقه على صورة نموذج..يفصّل عليه لباس الوجود، يبدله ويقصه ويغيره مبيناً بهذا التصرف تجليات مختلفة لأسمائه الحسنى. فمثلما يستدعي اسم (الشافي) المرض، فإن اسم (الرزاق) أيضاً يقتضي الجوع. وهكذا فهو سبحانه مالك الملك يتصرف في ملكه كيف يشاء. "

والوجه الثاني: أن الحياة تتصفى بالمصائب والبلايا، وتتزكى بالأمراض والنوائب، وتجد بها الكمال وتتقوى وتترقى وتسمو وتثمر وتنتج وتتكامل وتبلغ هدفها المراد لها، فتؤدي

مهمتها الحياتية. أما الحياة الرتيبة التي تمضي على نسق واحد وتمر على فراش الراحة، فهي أقرب إلى العدم الذي هو شر محض منه إلى الوجود الذي هو خير محض. بل هي تفضي إلى العدم.

والوجه الثالث: أن دار الدنيا هذه ما هي إلاّ ميدان اختبار وابتلاء، وهي دار عمل ومحل عبادة، وليست محل تمتع وتلذذ ولا مكان تسلم الأجرة ونيل الثواب. فما دامت الدنيا دار عمل ومحل عبادة، فالأمراض والمصائب عدا الدينية منها وبشرط الصبر عليها تكون ملائمة جدا مع ذلك العمل، بل منسجمة تماماً مع تلك العبادة، حيث إنها تمد العمل بقوة وتشد من أزر العبادة، فلا يجوز التشكي منها، بل يجب التحلي بالشكر لله بها، حيث إن تلك الأمراض والنوائب تحوّل كل ساعة من حياة المصاب عبادة ليوم كامل. "(اللمعات ١٢ -١٣)

ويلتفت الأستاذ بديع الزمان النورسي، رحمه الله، إلى أمر مهم وهو أن العبادة قسمان: إيجابي من صلاة وصيام وحج وزكاة، وسلبي يتمثل في " البلايا والضر والأمراض (التي) تجعل صاحبها يشعر بعجزه وضعفه، فيلتجىء إلى ربه الرحيم، ويتوجه إليه ويلوذ به، فيؤدي بهذا عبادة خالصة. هذه العبادة خالصة

زكية لا يدخل فيها الرياء قط. فإذا ما تجمل المصاب بالصبر وفكّر في ثواب ضره عند الله وجميل أجره عنده، وشكر ربه عليها، تحولت عندئذ كل ساعة من ساعات عمره كأنها يوم من العبادة، فيغدو عمره القصير جداً مديداً طويلاً، بل تتحول – عند بعضهم – كل دقيقة من دقائق عمره بمثابة يوم من العبادة.. "(انظر ص ١٣ من اللمعات)

ويبين أخيرا أن لكل عمل يعمله الإنسان أثرا في نفسه ولو بعد حين، فالذي يعمل الخير ويتذكر ماضيه يحمد الله عليه، والذي يعمل الشر يكون تذكره مصدر تنغيص وألم في نفسه، ومن ابتلي فصبر يصبح البلاء لديه مصدر شكر لا صبر فحسب. قال رحمه الله:

"فإذا ما فكر المصاب –.... – بما ادّخر له ربه الكريم من ثواب جميل وجزاء حسن في الآخرة وتأمل في تحول عمره القصير بالمصائب إلى عمر مديد فإنه لا يصبر على ما انتابه من ضُر وحده، بل يرقى أيضاً إلى مرتبة الشكر لله والرضا بقَدَره، فينطلق لسانه حامداً ربه وقائلاً: الحمد لله على كل حال سوى الكفر والضلال."(اللمعات ص١٤)

حبل النجاة في مناجاة يونس عليه السلام

يمر الإنسان بلحظات من الضعف لا يجد فيها معينا ولا مغيثا، إنها لحظات يعرف فيها الإنسان ألا ملجأ من الله إلا إليه، فلا ينفعه في تلك اللحظات قريب ولا صديق، ولا ينجده مال ولا سلطان، عندها لا يجد من يتوجه إليه إلا ربه سبحانه وتعالى، مستعينا مستغيثا موقنا أنه هو الملجأ والمعاذ والملاذ. ويجد عنده العون بعد يأس، وبعد أن كان الهلاك منه قريبا.

وقد حدثنا القرآن الكريم عن مواقف من هذه اللحظات التي يتجلى فيها ضعف الإنسان، وتتقطع به سبل النجاة وحبال الإنقاذ، ومنها ما يكون مع الإنسان في البحر حين يحيط به الموج، ويوقن أنه الهلاك، فيتوجه بصدق العبودية ويتمسك بحبل الاضطرار، فتكون من الله تعالى الإجابة، وتتحقق النجاة، فأما المؤمن فيمضي من بعد على العهد الذي قطعه مع ربه على الاستقامة، وأما الكافر والفاسق فينقض عهده إذا وصل إلى ما يظنه بر السلامة.

ومن الآيات التي صورت هذا الموقف قوله تعالى:

﴿ هُوَ ٱلَّذِى يُسَيِّرُكُمْ فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ ۖ حَتَّىٰٓ إِذَا كُنتُمْ فِى ٱلْفُلْكِ وَجَرَيْنَ بِهِم

بِرِيحٖ طَيِّبَةٖ وَفَرِحُواْ بِهَا جَآءَتۡهَا رِيحٌ عَاصِفٞ وَجَآءَهُمُ ٱلۡمَوۡجُ مِن كُلِّ مَكَانٖ وَظَنُّوٓاْ أَنَّهُمۡ أُحِيطَ بِهِمۡ دَعَوُاْ ٱللَّهَ مُخۡلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ لَئِنۡ أَنجَيۡتَنَا مِنۡ هَٰذِهِۦ لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلشَّٰكِرِينَ (٢٢) فَلَمَّآ أَنجَىٰهُمۡ إِذَا هُمۡ يَبۡغُونَ فِي ٱلۡأَرۡضِ بِغَيۡرِ ٱلۡحَقِّۗ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّمَا بَغۡيُكُمۡ عَلَىٰٓ أَنفُسِكُمۖ مَّتَٰعَ ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَاۖ ثُمَّ إِلَيۡنَا مَرۡجِعُكُمۡ فَنُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمۡ تَعۡمَلُونَ ﴾ (يونس/ ٢٢ – ٢٣).

إنـه موقـف الإنسـان الـذي يفقـد وسـائل القـوة كلـها، ويستشـعر العجـز في أجلـى صـوره فيلجـأ إلى ربـه سـبحانه ثـم بعـد النجاة يعود إلى البغي في الأرض ونسيان الله تعالى.

ومـن أجلـى صـور اللجـوء إلى الله تعـالى في لحظـات الضـعف وانقطاع الحول ما كان من أمـر يونس عليـه السـلام حين التقمـه الحـوت، ويحـدثنا عـن هـذا الموقـف العـالم الربـاني الأسـتاذ بـديع الزمـان سـعيد النورسـي، رحمـه الله تعـالى، فيقـول: "إن مناجـاة سيدنا يونس بن متى – على نبينا وعليه الصلاة والسلام – هي من أعظم أنواع المناجاة وأروعها، ومن أبلغ الوسائل لاستجابة الدعاء وقبوله. تتلخص قصته المشهورة بأنه – عليه السـلام – قـد أُلقـي به إلـى البـحر، فالتقمه الحـوت، وغشيته أمـواج البـحر الـهائجة، وأسدل الليل البهيم ستاره المظلم عليه. فداهمته الرهبة والخوف

من كل مكان وانقطعت أمامه أسباب الرجاء، وانسدت أبواب الأمل.. وإذا بمناجاته الرقيقة وتضرعه الخالص الزكي:

﴿لَّآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنتَ سُبْحَٰنَكَ إِنِّي كُنتُ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ (الأنبياء/ ٨٧)

يصبح له في تلك الحالة واسطة نجاة ووسيلة خلاص.وسر هذه المناجاة العظيم هو:

أن الأسباب المادية قد هوت كلياً في ذلك الوضع المرعب، وسقطت نهائياً فلم تحرك ساكناً ولم تترك أثراً، وذلك لان الذي يستطيع ان ينقذه من تلك الحالة، ليس إلاّ ذلك الذي تنفذ قدرتُه في الحوت، وتهيمن على البحر وتستولي على الليل وجو السماء؛ حيث إن كلا من الليل الحالك والبحر الهائج والحوت الهائل قد اتفق على الانقضاض عليه، فلا ينجيه سبب، ولا يخلصه أحد، ولا يوصله إلى ساحل السلامة بأمان، إلاّ من بيده مقاليد الليل وزمام البحر والحوت معاً، ومَن يسخّر كل شيء تحت أمره.. حتى لو كان الخلق أجمعين تحت خدمته عليه السلام ورهن إشارته في ذلك الموقف الرهيب، ما كانوا ينفعونه بشيء!.

أجل لا تأثير للأسباب قط.. فما إن رأى عليه السلام بعين اليقين ألاّ ملجأ له من أمره تعالى إلاّ اللواذ إلى كنف مسبب الأسباب، انكشف له سرٌّ الأحدية من خلال نور التوحيد الساطع، حتى سخرتْ له تلك المناجاةُ الخالصة الليل والبحر والحوت معاً، بل تحوّل له بنور التوحيد الخالص بطنُ الحوت المظلم إلى ما يشبه جوف غواصة أمينة هادئة تسير تحت البحر، وأصبح ذلك البحر الهائج بالأمواج المتلاطمة ما يشبه المتنزه الآمن الهادئ، وانقشعت الغيوم عن وجه السماء – بتلك المناجاة – وكشف القمر عن وجهه المنير كأنه مصباح وضيء يتدلى فوق رأسه..

وهكذا غدت تلك المخلوقات التي كانت تهدده وترعبه من كل صوب وتضيق عليه الخناق، غدت الآن تسفر له عن وجه الصداقة، وتتقرب إليه بالود والحنان، حتى خرج إلى شاطىء السلامة وشاهد لطف الرب الرحيم تحت شجرة اليقطين. " (اللمعات ٦ -٧)

ويربط الأستاذ بديع الزمان سعيد النورسي، رحمه الله، بين قصة يونس عليه السلام وحياتنا وما فيها من المخاطر التي ندرك بعضها ونغفل عن كثير منها لنراها في ضوء قصة يونس عليه

السلام فيقول: "فلننظر بنور تلك المناجاة إلى أنفسنا.. فنحن في وضع مخيف ومرعب أضعاف أضعاف ما كان فيه سيدنا يونس عليه السلام، حيث إن ليلنا الذي يخيم علينا ، هو المستقبل.. فمستقبلنا إذا نظرنا إليه بنظر الغفلة يبدو مظلماً مخيفاً ،بل هو أحلك ظلاماً وأشد عتامة من الليل الذي كان فيه سيدنا يونس عليه السلام بمائة مرة.. وبحرنا ،هو بحر الكرة الأرضية، فكل موجة من أمواج هذا البحر المتلاطم تحمل آلاف الجنائز، فهو إذن بحر مرعب رهيب بمئة ضعف رهبة البحر الذي ألقي فيه عليه السلام.وحوتنا، هو ما نحمله من نفس أمارة بالسوء، فهي حوت يريد أن يلتقم حياتنا الأبدية ويمحقها. هذا الحوت اشد ضراوة من الحوت الذي ابتلع سيدنا يونس عليه السلام: إذ كان يمكنه أن يقضي على حياة أمدها مائة سنة، بينما حوتنا نحن يحاول إفناء مئات الملايين من سني حياة خالدة هنيئة رغيدة.

فما دامت حقيقة وضعنا هذه، فما علينا إذاً إلاّ الاقتداء بسيدنا يونس عليه السلام والسير على هديه، معرضين عن الأسباب جميعاً، مقبلين كلياً إلى ربّنا الذي هو مسبب الأسباب متوجهين إليه بقلوبنا وجوارحنا، ملتجئين إليه سبحانه قائلين: ﴿إِلَٰهَ إِلَّآ أَنتَ سُبۡحَٰنَكَ إِنِّي كُنتُ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ (الأنبياء/ ٨٧)

مدركين بعين اليقين أن قد ائتمر علينا -بسبب غفلتنا وضلالنا -مستقبلُنا الذي يرتقبنا، ودنيانا التي تضمنا، ونفوسُنا الأمارة بالسوء التي بين جنبينا، موقنين كذلك أنه لا يقدر أن يدفع عنا مخاوف المستقبل وأوهامه، ولا يزيل عنا أهوال الدنيا ومصائبها، ولا يبعد عنا أضرار النفس الأمارة بالسوء ودسائسها، إلاّ من كان المستقبل تحت أمره، والدنيا تحت حكمه، وأنفسنا تحت إدارته.

تُرى من غيرُ خالق السموات والأرضين يعرف خلجات قلوبنا، ومَن غَيّرُه يعلم خفايا صدورنا، ومَن غَيرُه قادر على إنارة المستقبل لنا بخلق الآخرة، ومن غيرُه يستطيع أن ينقذنا من بين ألوف أمواج الدنيا المتلاطمة بالأحداث؟،. حاش لله وكلا أن يكون لنا منج غيره ومخلّصٌ سواه، فهو الذي لولا إرادته النافذة ولولا أمره المهيمن لما تمكن شيء أينما كان وكيفما كان أن يمد يده ليغيث أحداً بشيء،.

فما دامت هذه حقيقة وضعنا فما علينا إلاّ أن نرفع أكفّ الضراعة إليه سبحانه متوسلين، مستعطفين نظر رحمته الربانية إلينا، اقتداء بسر تلك المناجاة الرائعة التي سخّرت الحوت لسيدنا يونس عليه السلام كأنه غواصة تسير تحت البحر،

وحولت البحر متنزها جميلا، وألبست الليل جلباب النور الوضيء بالبدر الساطع. فنقول:

﴿لَّآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنتَ سُبۡحَٰنَكَ إِنِّي كُنتُ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾

(الأنبياء/٨٧). **فنلفت بها نظر الرحمة الإلهية إلى مستقبلنا بقولنا:** ﴿لَّآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنتَ﴾. **ونلفتها إلى دنيانا بكلمة:** ﴿سُبۡحَٰنَكَ﴾ **ونرجوها أن تنظر إلى أنفسنا بنظر الرأفة والشفقة بجملة:**

﴿إِنِّي كُنتُ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾

كي يعم مستقبلنا نور الإيمان وضياء بدر القرآن وينقلب رعب ليلنا ودهشته إلى أمن الأنس وطمأنينة البهجة. ولتنتهي مهمة حياتنا ونختتم وظيفتها بالوصول إلى شاطئ الأمن والأمان دخولا في رحاب حقيقة الإسلام، تلك الحقيقة التي هي سفينة معنوية أعدّها القرآن العظيم، فنبحر بها عباب الحياة، فوق أمواج السنين والقرون الحاملة لجنائز لا يحصرها العد، ويقذفها إلى العدم تبدل الموت والحياة وتناوبهما الدائبان في دنيانا وأرضنا، فننظر إلى هذا المشهد الرهيب بمنظار نور القرآن الباهر، وإذا هو مناظر متبدلة، متجددة، يحول تجددها المستمر تلك

الوحشة الرهيبة النابعة من هبوب العواصف وحدوث الزلازل للبحر إلى نظر تقطر منه العبرة، ويبعث على التأمل والتفكر في خلق الله، فتستضيء وتتألق ببهجة التجدد ولطافة التجديد. فلا تستطيع عندها نفوسنا الأمارة على قهرنا، بل نكون نحن الذين نقهرها بما منحنا القرآن الكريم من ذلك السر اللطيف، بل نمتطيها بتلك التربية المنبثقة من القرآن الكريم. فتصبح النفس الأمارة طوع إرادتنا،وتغدو وسيلة نافعة ووساطة خير للفوز بحياة خالدة."(اللمعات ٨ -٩)

ويختم رحمه الله تأملاته في هذا الموقف الذي عاشه يونس عليه السلام والذكر الذي كان حبل نجاة له بقوله: "إن الإنسان بما يحمل من ماهية جامعة يتألم من الحمّى البسيطة كما يتألم من زلزلة الأرض وهزاتها ويتألم من زلزال الكون العظيم عند قيام الساعة، ويخاف من جرثومة صغيرة كما يخاف من المذنبات الظاهرة في الأجرام السماوية، ويحب بيته ويأنس به كما يحب الدنيا العظيمة، ويهوى حديقته الصغيرة ويتعلق بها كما يشتاق إلى الجنة الخالدة ويتوق إليها.

فما دام أمر الإنسان هكذا، فلا معبود له ولا رب ولا مولى ولا منجا ولا ملجأ إلا من بيده مقاليد السموات والأرض وزمام الذرات والمجرات، وكل شيء تحت حكمه، طوع أمره.. فلابد أن هذا الإنسان بحاجة ماسة دائماً إلى التوجه إلى بارئه الجليل والتضرع إليه اقتداء بسيدنا يونس عليه السلام. فيقول:

﴿لَّآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنتَ سُبۡحَٰنَكَ إِنِّي كُنتُ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ (الأنبياء/٨٧)" **(اللمعات ٩)**

يا باقي أنت الباقي

إذا تنبه الإنسان إلى حقيقة دنياه وعلاقته بما فيها من أشياء أيقن أن الدنيا زائلة، وإن طال مقامه فيها، وأن كل ما يرتبط به من الناس والأشياء سينحل، ولكن النظر في حال كثير من الناس يرينا أنهم يعيشون في الأرض وكأنها دار مقام وقرار لا دار مستقر ومتاع إلى حين، ويبدو أن الدنيا وروابطها ومشاغلها تلقي ستارا كثيفا على العقل والحواس تجعل الإنسان أسير لحظته أو حبيس شهوته أو في قيد ما يشغله من أمور الحياة مما يجعله بين أسوار هذه المشاغل في معزل عن الرؤية الشاملة التي تريه ما كان من أمره حين:

﴿لَمْ يَكُن شَيْـًٔا مَّذْكُورًا﴾ (الإنسان/١).

وما سيكون من أمره من بعد: ﴿كُلُّ نَفْسٍ ذَآئِقَةُ ٱلْمَوْتِ﴾ (آل عمران/١٨٥).

إن من أهم ما يحفظ الإنسان من الوقوع في أسر الغفلة دوام قراءة القرآن الكريم الذي يجلو الغبش ويمسح الران ويديم الوعي، ولكن ذلك يكون مع التفكر الدائم والتدبر في آياته

التي تفتح النوافذ على ايات الله في النفس والآفاق.

إن من المهم أن يديم الإنسان تذكر التحذير الرباني من غرور الدنيا:

﴿فَلَا تَغُرَّنَّكُمُ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا وَلَا يَغُرَّنَّكُم بِٱللَّهِ ٱلْغَرُورُ﴾ (لقمان/٣٣).

هذا الوعي يجعل للحياة قيمة أكبر ومعنى أعمق بل يعطي للحياة معناها الحقيقي، فأي معنى للحياة إن كانت محصورة بين لحظة الميلاد والممات؟

أي معنى لها ولو أمضاها الإنسان في نعيم ممتد، فكيف إذا كانت حياة شقاء وفقر ومعاناة، أو كانت بين بين، ممزوجة لا صرفا؟

وكيف إذا تحولت متعها إلى أدوات عذاب بما يكون من فراقها وتركها؟

ومن من الناس لم يحزنه فراق أحبة له بالسفر أو الموت؟

يقف بنا الأستاذ بديع الزمان النورسي، رحمه الله، على حقيقة الدنيا ويحلق في عرض الخلود الذي يسعى إليه الإنسان وذلك بالوقوف مع الآية الكريمة:

﴿كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُ﴾ (القصص/٨٨).

ويستذكر جملتين يرددهما بعض شيوخ الطريقة النقشبندية هي زبدة الأوراد لديهم ويرى أن هاتين الجملتين تنطويان على معان جليلة لتلك الآية. والجملتان جملة واحدة مكررة مرتين وهما: "ياباقي انت الباقي. ياباقي انت الباقي."

ويبين الأستاذ النورسي آثار ترديد الجملة الأولى لكنه الترديد الواعي الذي يستكشف حقيقة الجملة ويستنير بها العقل والقلب فيقول: "إن ترديد «ياباقي انت الباقي» للمرة الاولى، يجرّد القلب مما سوى الله تعالى، فيجري ما يشبه عملية جراحية فيه، ويقطعه عما سواه سبحانه. وتوضيح هذا: أن الإنسان بما أودع الله فيه من ماهية جامعة يرتبط مع اغلب الموجودات بأواصر ووشائج شتى. ففي تلك الماهية الجامعة من الاستعداد غير المحدود للمحبة ما يجعله يكنّ حباً عميقاً تجاه الموجودات عامة، فيحب الدنيا العظيمة كما يحب بيته، ويحب الجنة الخالدة كما يحب حديقته. بينما الموجودات - التي وجّه الإنسانُ حبه نحوها - لا تدوم، بل لا تلبث أن تزول، لذا يذوق الإنسان دائماً عذاب ألم الفراق. فتصبح تلك المحبة التي لا منتهى لها مبعث عذاب معنوي لا منتهى له، لتقصيره بحقها. فالآلام التي يتجرعها

ناشئة من تقصيره هو، حيث لم يودع فيه استعداد المحبة إلا ليوجهه إلى مَن له جمال خالد مطلق. بينما الإنسان لم يحسن استعمال محبته فوجهها إلى موجودات فانية زائلة، فيذوق وبال أمره بآلام الفراق."(اللمعات ٢٠ -٢١)

ومن أوضح الأمثلة على هذا الأمر علاقة الحب التي تقع بين الرجال والنساء والتي يكون لها من الآثار السلبية أحيانا ما يجعلها علاقة عبودية، والأمثلة المشهورة في تاريخ الأدب والحب تبين ذلك بوضوح ونستذكر هنا: مجنون ليلى ومجنون لبنى وغيرهما من ضحايا هذه العلاقة التي جعلت حياتهم جحيما بعد أن تصوروا الحب بوابة إلى النعيم.

ويمضي الأستاذ النورسي في بيان أثر جملة:"يا باقي أنت الباقي"فيقول: "فعندما يردد الإنسان: يا باقي أنت الباقي. يعني بها: البراءة الكاملة من هذا التقصير، وقطع العلاقات مع تلك المحبوبات الفانية، والتخلي عنها كلياً، قبل أن تتخلى هي عنه. ثم تسديد النظر في المحبوب الباقي وهو الله سبحانه دون سواه.

أي يقول بها: (لا باقي بقاء حقيقياً إلاّ أنت يا إلهي. فما سواكَ فانٍ زائلٌ، والزائل غير جدير بالمحبة الباقية ولا العشق الدائم، ولا بأن يشد معه أواصر قلب خُلق أصلا للأبد والخلود).

وحيث إن الموجودات فانية وستتركني ذاهبة إلى شأنها، فسأتركها أنا قبل أن تتركني، بترديدي: (يا باقي أنت الباقي) أي: أؤمن وأعتقد يقينا أنه لا باقي إلاّ أنت يا إلهي، وبقاء الموجودات موكول بإبقائك إياها، فلا يوجه إليها المحبة إذاً إلاّ من خلال نور محبتك، وضمن مرضاتك، وإلاّ فإنها غير جديرة بربط القلب معها.

فهذه الحالة تجعل القلب يتخلى عن محبوبات كان يوليها محبة لا حدود لها، حيث يبصر ختم الفناء ويشاهد طابع الزوال على ما أضفي عليها من جمال وبهاء، فتتقطع عندئذ تلك الوشائج التي كانت تربط القلب بالموجودات. وبخلاف هذا الأمر أي إن لم يتخل القلب عن محبوباته فإن جراحات وآلام وحسرات تتفجر من أعماقه بقدر تلك المحبوبات الفانية."(اللمعات ٢١)

إن الأشياء تكون لها قيمة حين تكون لله وبالله وإلا فإنها إلى زوال وتكون مصدر شقاء بزوالها إذا كان ترديد جملة " يا باقي أنت الباقي للمرة الأولى يكشف زيف الأشياء وكونها زائلة فانية مما يبصر الإنسان بحقيقتها ويحدد علاقته معها كما يجب أن تكون فإن ترديدها للمرة الثانية يبصر الإنسان بالكيفية التي

تحولها من فانية إلى باقية ومن أدوات عذاب إلى وسائل سعادة.

لنتذكر أن لكل ما نقوم به في الدنيا معادلا في الآخرة سواء أكان ذلك خيرا أو شرا، ولنقف على جانب الخير دون الشر.

إن الأشياء الفانية تتحول إلى أشياء باقية خالدة عندما تكون لله تعالى، فالمال الذي لدى الإنسان يفنى ويتلاشى بإنفاقه في طعام يؤكل أو لباس يرتدى، أو في أي شيء من أشياء الدنيا الفانية، لكنه يتحول إلى أضعاف مقداره حين ينفق في سبيل الله، ولنتذكر قول ربنا سبحانه:

﴿مَّثَلُ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنۢبَتَتْ سَبْعَ سَنَابِلَ فِي كُلِّ سُنۢبُلَةٍ مِّاْئَةُ حَبَّةٍۗ وَٱللَّهُ يُضَٰعِفُ لِمَن يَشَآءُۗ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ﴾ (البقرة/٢٦١).

ولنتذكر قول الرسول ﷺ في بيان علاقة الإنسان مع المال في الحديث الذي رواه مسلم وغيره: "يقول ابن آدم مالي مالي وهل لك يا ابن آدم من مالك إلا ما أكلت فأفنيت أو لبست فأبليت أو تصدقت فأمضيت"(أخرجه مسلم والترمذي والنسائي)

ولهذا المعنى شواهد كثيرة من القرآن الكريم والسنة الشريفة ومن ذلك حديث الشاة الذي رواه الترمذي حين سأل النبي ﷺ عنها السيدة عائشة رضي الله عنها فأخبرته أنه تم التصدق بها إلا كتفها وجاءت صيغة جوابها أنها قالت: "ما بقي منها إلا كتفها" فجاء التصحيح النبوي للتصور: "بقي كلها غير كتفها" (الترمذي وأحمد)

فالفاني من المال يتحول إلى باق حين يتصل بالباقي بالنية الصحيحة، والفاني القصير من العمر يصبح عمرا غير محدود في دار الخلود، وقد تحدث عن هذا المعنى الأستاذ بديع الزمان النورسي، رحمه الله، في حديثه عن الجملة الثانية المكررة: "يا باقي أنت الباقي" وسأقتطف بعضا مما قاله.

يرى رحمه الله تعالى أن قول هذه الجملة في المرة الأولى بمثابة، إجراء عملية جراحية تخلص القلب من الارتباط بالأشياء الفانية، وتكرارها للمرة الثانية تعويض عن كل مفقود طواه عالم الفناء.

قال في ذلك: "أما الجملة الثانية: (يا باقي انت الباقي) فهي كالمرهم الشافي والبلسم الناجع يمرر على العملية الجراحية التي أجرتها الجملة الأولى على القلب وروابطه، حيث إنها تعني:

(كفى بك يا إلهي باقياً. فبقاؤك بديل عن كلّ شيء.. وحيث إنك موجود فكل شيء موجود إذن)"(اللمعات ٢١)

ويشير رحمه الله إلى معنى دقيق مرتبط بالإنسان ومنزلته عند ربه سبحانه ذلك أن الله تعالى خلق للإنسان في الدنيا كل ما يشتهيه، ومن أكبر ما يشتهي الإنسان أن يكون خالدا لا فانيا، ومن أجل هذا الإنسان المكرم عند الله تعالى جعل الله تعالى له دارا خالدة في الآخرة قال الأستاذ النورسي رحمه الله: "وما دام الإنسان عاشقاً للبقاء، فلا بد أن جميع كمالاته وأذواقه تابعة للبقاء أيضاً. ولما كان البقاء صفة خاصة للباقي ذي الجلال، وأن أسماءه الحسنى باقية،وأن المرايا العاكسة لتجليات تلك الأسماء تتصبغ بصبغتها وتأخذ حكمها، أي تنال نوعا من البقاء، فلابد أن ألزم شيء لهذا الإنسان وأجلّ وظيفة له هو شدّ الأواصر وربط العلاقات مع ذلك الباقي ذي الجلال والاعتصام التام بأسمائه الحسنى، لأن ما يُصرف في سبيل الباقي ينال نوعا من البقاء."(اللمعات٢٢)

ويوضح الفكرة بقوله: "فإن عمر الإنسان الفاني يتضمن عمراً باقياً من حيث حياته القلبية والروحية اللتين تحييان بالمعرفة الإلهية والمحبة الربّانية والعبودية السبحانية

والمرضيات الرحمانية، بل ينتج هذا العمر الباقي الخالد في دار الخلود والبقاء، فيكون هذا العمر الفاني بمثابة عمر أبدي."(اللمعات ٢٣)

ويختم كلامه الذي أفاض فيه بنصيحة تحول الفاني إلى باق فيقول: "فسعادة هذا الإنسان ووظيفته الأساس إنما هي: التوجه إلى ذلك الباقي بكامل جهوده وجوارحه وبجميع استعداداته الفطرية، سائراً قُدماً في سبيل مرضاته، متمسكا بأسمائه الحسنى، مردداً بجميع لطائفه – من قلب وروح وعقل – ما يردده لسانه: يا باقي أنت الباقي: هو الباقي، هو الأزلي الأبدي، هو السرمدي، هو الدائم، هو المطلوب، هو المحبوب، هو المقصود، هو المعبود."(اللمعات ٢٦)

التجارة الرابحة

أخبرنا الرسول الكريم عليه وآله الصلاة والسلام أن مثل هذه الدنيا كسوق أقيمت ثم انفضت وأن الناس يغدون إلى السوق: فمنهم من يبيع نفسه فيهلكها ، ومنهم من يبيعها فيعتقها ، وذلك في الحديث الذي رواه مسلم ومنه: "كُلُّ النَّاسِ يَغْدُو فَبَائِعٌ نَفْسَهُ فَمُعْتِقُهَا أَو مُوبِقُهَا"

وهذا ما توحي به هذه الآية الكريمة: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ ٱشۡتَرَىٰ مِنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ أَنفُسَهُمۡ وَأَمۡوَٰلَهُم بِأَنَّ لَهُمُ ٱلۡجَنَّةَۚ﴾ (التوبة/١١١).

وقد وقف الأستاذ بديع الزمان النورسي، رحمه الله، مع هذه الآية وضرب المثل للحالين فقال: "إذا أردت أن تعلم أن بيع النفس والمال إلى الله تعالى، والعبودية له، والجندية في سبيله أربح تجارة واشرفها! فأنصت إلى هذه الحكاية التمثيلية القصيرة:

وضع سلطان - ذات يوم - لدى اثنين من رعاياه وديعةً وأمانةً، لكل منهما مزرعة واسعة، فيها كل ما تتطلبه من مكائن وآلات وأسلحة وحيوانات وغيرها.. وتوافق أن كان الوقت آنذاك

وقت حرب طاحنة، لا يقرّ قرار لشيء؛ فإما أن تبدّله الحرب وتغيّره أو تجعله أثراً بعد عين. فأرسل السلطان رحمةً منه وفضلاً أحدَ رجاله المقربين مصحوباً بأمره الكريم ليقول لهما: بيعوا لي ما لديكم من أماناتي لأحفظها لكم، فلا تذهب هباء في هذا الوقت العصيب، وسأردّها لكم حالما تضع الحرب أوزارها.. وسأوفي ثمنها لكم غالياً، كأن تلك الأمانة ملككم.. وستُشغل تلك المكائن والآلات التي في حوزتكم الآن في معاملي وباسمي وعهدتي.. وسترتفع أثمانها من الواحد إلى الألف، فضلاً عن أن جميع الأرباح ستعود إليكم أيضاً.. وسأتعهد عنكم بجميع تكاليفها ومصاريفها، حيث إنكم عاجزون فقراء لا تتحملون مصاريف تلك المكائن.. وسأردّ لكم جميع وارداتها ومنافعها، علماً أني سأبقيها عندكم لتستفيدوا منها وتتمتعوا بها إلى أن يحين وقت أخذها. فلكم خمس مراتب من الأرباح في صفقة واحدة.

وإن لم تبيعوها لي فسيزول حتماً كل ما لديكم، حيث ترون أن أحداً لا يستطيع أن يمسك بما عنده.. وستحرمون من تلك الأثمان الغالية.. وستهمل تلك الآلات الدقيقة النفيسة والموازين

الحساسة والمعادن الثمينة، وتفقد قيمتها كلياً، وذلك لعدم استعمالها في أعمال راقية.. وستتحملون وحدكم إدارتها وتكاليفها وسترون جزاء خيانتكم للأمانة.. فتلك خمس خسائر في صفقة واحدة. وفوق هذا كله إن هذا البيع يعني أن البائع يصبح جندياً حراً أبياً خاصاً بي، يتصرف باسمي ولا يبقى أسيراً عادياً وشخصاً سائباً...

أنصت الرجلان ملياً إلى هذا الكلام الجميل والأمر السلطاني الكريم. فقال العاقل الرزين منهما: سمعاً وطاعة لأمر السلطان، رضيت بالبيع بكل فخر وشكر.

أما الآخر المغرور المتفرعن الغافل فقد ظن أن مزرعته لا تبيد أبداً، ولا تصيبها تقلبات الدهر واضطرابات الدنيا، فقال: لا!.. ومَن السلطان؟ لا أبيع ملكي ولا أفسد نشوتي!.

ودارت الأيام.. فأصبح الرجل الأول في مقام يغبطه الناس جميعاً، إذ أضحى يعيش في بحبوحة قصر السلطان، يتنعم بألطافه ويتقلب على أرائك أفضاله. أما الآخر فقد ابتلي شرّ بلاء حتى رثى لحاله الناس كلهم، رغم أنهم قالوا: إنه يستحقها! إذ هو الذي ورّط نفسه في مرارة العذاب جزاء ما ارتكب من خطأ،

فلا دامت له نشوته ولا دام له ملكه."(الكلمات ٢١ -٢٢)

بعد هذا المثل الحكاية يقف الأستاذ النورسي، رحمه الله، وقفة تدبر يكشف فيها المراد من هذا المثل فيقول وهو يجعلنا بمثله نستحضر قصة أصحاب الجنة في سورة نون، وقصة صاحب الجنتين في سورة الكهف، يقول الأستاذ النورسي رحمه الله مخاطبا نفسه ويجعل كل واحد منا يقف من نفسه الموقف ذاته:

"فيا نفسي المغرورة! انظري من خلال منظار هذه الحكاية إلى وجه الحقيقة الناصعة. فالسلطان هو سلطان الأزل والأبد وهو ربك وخالقك. وتلك المزرعة والمكائن والآلات والموازين هي ما تملكينه في الحياة الدنيا من جسم وروح وقلب، وما فيها من سمع وبصر وعقل وخيال، أي جميع الحواس الظاهرة والباطنة. وأما الرسول الكريم فهو سيدنا محمد ﷺ. وأما الأمر السلطاني المحكم فهو القرآن الكريم الذي يعلن هذا البيع والتجارة الرابحة في هذه الآية الكريمة:

﴿إِنَّ ٱللَّهَ ٱشۡتَرَىٰ مِنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ أَنفُسَهُمۡ وَأَمۡوَٰلَهُم بِأَنَّ لَهُمُ ٱلۡجَنَّةَۚ﴾

وأما الميدان المضطرب والحرب المدمّرة فهي أحوال هذه الدنيا، إذ لا قرار فيها ولا ثبات، كلها تقلبات تلحّ على فكر الإنسان بهذا السؤال: إن جميع ما نملك لا يستقر ولا يبقى في أيدينا، بل يفنى ويغيب عنّا، أليس هناك من علاج لهذا؟ ألا يمكن أن يحل البقاء بهذا الفناء؟!".(الكلمات ٢٢)

والأستاذ النورسي، رحمه الله، بهذا السؤال يقف على أمر يلح على الإنسان هو قصر الحياة وزوالها السريع مما يثير الرعب لديه ويبحث عن الخلود وهذا ما يضع يدنا عليه فيقول: "وبينما الإنسان غارق في هذا التفكير، إذا به يسمع صدى القرآن السماوي يدوّي في الآفاق ويقول له بتلك الآية الكريمة: نعم! إن هناك علاجاً لهذا الداء، بل هو علاج لطيف فيه ربح عظيم في خمس مراتب.

سؤال: وما العلاج؟

الجواب: بيعُ الامانة إلى مالكها الحقيقي، في هذا البيع خمس درجات من الربح في صفقة واحدة.

الربح الاول: المال الفاني يجد البقاء، لأن العمر الزائل الذي يوهب للحي القيوم الباقي، ويبذل في سبيله سبحانه، ينقلب عمراً أبدياً باقياً. عندئذٍ تثمر دقائق العمر ثماراً يانعة وأزاهير سعادة وضاءة في عالم البقاء مثلما تفنى البذور ظاهراً وتنشق عنها الأزهار والسنابل.

الربح الثاني: الثمن هو الجنة.

الربح الثالث: يرتفع ثمن كل عضو وحاسة ويغلو من الواحدة إلى الألف.

فمثلاً: العقل عضو وآلة، إن لم تبعه - يا اخي - لله ولم تستعمله في سبيله، بل جعلته في سبيل الهوى والنفس، فإنه يتحول إلى عضو مشؤوم مزعج وعاجز، إذ يحمّلك آلام الماضي الحزينة وأهوال المستقبل المخيفة، فينحدر عندئذٍ إلى درك آلة ضارة مشؤومة، ألا ترى كيف يهرب الفاسق من واقع حياته وينغمس في اللهو أو السكر إنقاذاً لنفسه من إزعاجات عقله؟ ولكن إذا بيع العقل إلى الله، واستُعمل في سبيله ولأجله، فإنه يكون مفتاحاً رائعاً بحيث يفتح ما لا يعد من خزائن الرحمة الإلهية وكنوز الحكمة الربانية فأينما ينظر صاحبه وكيفما يفكر يرى

الحكمـة الإلهيـة في كـل شـيء، وكل موجود، وكـل حادثـة. ويشاهد الرحمة الإلهية متجلية على الوجود كله، فيرقى العقل بهـذا إلى مرتبـة مرشـدٍ ربـاني يهيـئ صـاحبه للسـعادة الخالدة."(الكلمات ٢٣)

ويمضي الأستاذ النورسي رحمه الله مع حواس الإنسان ليبين كيف يكون حالها حين تكون لله فتصبح نعمة باقية خالدة وتكون بوابة خير لصاحبها ليكون في تجارته مع الله تعالى من الرابحين وحالها حين تكون للهوى لتصبح سببا لهلاك صاحبها ويكون في سيره في هوى نفسه من الخاسرين.

(سنريهم آياتنا)

وجه إلى بديع الزمان سعيد النورسي سؤال من بعض من ساءهم انتشار موجة الإلحاد التي شاعت في أوائل القرن العشرين وكان الإلحاد قرين العلم والتعلم وكان السؤال الذي وجه إليه حول الآية الكريمة:

﴿ سَنُرِيهِمْ ءَايَٰتِنَا فِى ٱلْءَافَاقِ وَفِىٓ أَنفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ ۗ أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدٌ ﴾ (فُصِّلَت/٥٣).

وهذا السؤال مرتبط بما يكشف عن أوجه من إعجاز القرآن وما يربط الإنسان بالله ربه ويزيح عنه ظلمة الإلحاد، وجاء السؤال بالصيغة الآتية:

"نرجو أن توضح لنا توضيحاً مجملاً ومختصراً، ما في هذه الآية الكريمة الجامعة من دلائل على وجوب وجود الله سبحانه، وعلى وحدانيته وأوصافه الجليلة وشؤونه الربانية، سواءً أكان وجه الدلائل في العالم الأصغر أو الأكبر، أي في الإنسان أو الكون. فلقد أفرط الملحدون وتمادوا في غيّهم حتى بدأوا يجاهرون بقولهم: إلى متى نرفع أكفّنا وندعو: (وهو على كل

شيء قدير)؟."(الكلمات ٧٦٧)

وجاء الجواب منه رحمه الله: أن ما كُتِبَ في كتاب "الكلمات" من ثلاث وثلاثين "كلمة"، ما هي إلاّ ثلاث وثلاثون قطرة تقطّرت من فيض هذه الآية الكريمة. يمكنكم أن تجدوا ما يقنعكم بمراجعتها." وهو يشير بهذا الافتتاح للجواب إلى المجلد الأول من رسائل النور التي ألفها وعنوانه: الكلمات، ولكنه لم يقتصر على ذلك الذي ورد في كتاب الكلمات بل قدم جوابا موجزا فتح به نوافذ النور للسائلين وقدم لجوابه بقوله:

"هنا سنشير مجرد إشارة إلى رشحاتِ قطرةٍ من ذلك البحر العظيم. فنمهد لها بمثال: إن الذي يملك قدرة معجزة ومهارة فائقة إذا ما أراد أن يبني قصراً عظيماً فلا شك أنه قبل كل شيء يرسي أسسه بنظام متقن، ويضع قواعده بحكمة كاملة، وينسّقه تنسيقاً يلائم لما يُبنى لأجله من غايات وما يرجى منه من نتائج. ثم يبدأ بتقسيمه وتفصيله بما لديه من مهارة وإبداع إلى أقسام ودوائر وحجرات، ثم نراه ينظم تلك الحجرات ويزيّنها بروائع النقوش الجميلة، ثم ينوّر كل ركن من أركان القصر بمصابيح كهربائية عظيمة، ثم لأجل تجديد إحسانه وإظهار مهارته نراه يجدد ما فيه من الأشياء ويبدّلها ويحوّلها. ثم يربط

بكل حجرة من الحجرات هاتفاً خاصاً يتصل بمقامه، ويفتح من كلٍ منها نافذةً يُرى منها مقامه الرفيع.

وعلى غرار هذا المثال " ولله المثل الأعلى " فالصانع الجليل - الذي له ألف اسم واسم من الأسماء الحسنى - أمثال: الحاكم الحكيم، والعدل الحَكَم، والفاطر الجليل، الذي ليس كمثله شيء. أراد - وإرادته نافذة - خلقَ شجرة الكائنات العظيمة، وايجاد قصر الكون البديع.. هذا العالم الأكبر.. فوضع أسس ذلك القصر وأصول تلك الشجرة في ستة أيام بدساتير حكمته المحيطة وقوانين علمه الأزلي. ثم صوّره وأحسن صوره بدساتير القضاء والقدر وفصّله تفصيلاً دقيقاً الى طبقات وفروع علوية وسفلية. ثم نظّم كل طائفة من المخلوقات وكل طبقة منها بدساتير العناية والإحسان. ثم زيّن كل شيء وكل عالم، بما يليق به من جمال - فزيّن السماء مثلاً بالنجوم وجمّل الأرض بالأزاهير- ثم نوّر ميادين تلك القوانين الكلية وآفاق تلك الدساتير العامة بتجليات أسمائه الحسنى، ثم أمدّ الذين يستغيثون به مما يلاقونه من مضايقات تلك القوانين الكلية فتَوجَّه اليهم باسم "الرحمن الرحيم"، أي أنه وضع في ثنايا قوانينه الكلية ودساتيره العامة من الإحسانات الخاصة والإغاثات الخاصة

والتجليات الخاصة ما يمكّن كل شئ أن يتوجَّه اليه سبحانه في كل حين ويسأله كل ما يحتاجه. وفَتَح من كل منزل، ومن كل طبقة، ومن كل عالم، ومن كل طائفة، ومن كل فرد، ومن كل شيء نوافذ تتطلع إليه وتظهره، أي تُبين وجوده الحق ووحدانيته، فأودع في كل قلب هاتفاً يتصل به. "

ثم قال بعد هذا الكلام الجميل العميق الذي جال فيه في أنحاء الوجود جولات خاطفة وأشار إلى جوانب القدرة والحكمة التي تتجلى في الخلق كله وإلى وسائل الاتصال بين الخلق وربهم سبحانه فهم يلجؤون إليه ويجدون منه العون والمدد في كل ما يسألونه إياه وهي النوافذ التي يطل منها العباد على قدرة ربهم ويحسون من خلالها بمعيته وقدرته وحكمته، قال الأستاذ النورسي بعد ذلك:

"وبعد؛ فسوف لا نقحم أنفسنا فيما لا طاقة لنا به من بحث هذه النوافذ التي لا تعد ولا تحصى، بل نحيلها الى علم الله المحيط بكل شيء، إلاّ ما نشير من إشارات مجملة فقط إلى ثلاث وثلاثين نافذة منها، تألّقت من لمعات آيات القرآن الكريم (...) وقد حصرناها في ثلاثٍ وثلاثين نافذة تبركاً بالأذكار التي تأتي عقب الصلوات الخمس"(الكلمات٧٦٧ -٧٦٨)

ويبدأ رحمه الله بعرض تلك النوافذ التي تدل على الله تعالى دلالة قاطعة تدحض شبهات الملحدين، وهو يحدثنا في النافذة الأولى عن دليل على الله هو تلبية حاجات الكائنات المختلفة تلك الحاجات التي لا تستطيع تلك الكائنات تلبيتها بنفسها وقد مثل على ذلاك بالإنسان نفسه وجعله مثالا لغيره قال رحمه الله:

"النافذة الاولى نشاهد في الموجودات جميعها ولا سيما الأحياء منها افتقاراً إلى حاجات مختلفة ومطاليب متنوعة لا تحصى.. وإن تلك الحاجات تُساقُ إليها من حيث لا تحتسب، وتلك المطاليب تترى عليها كُلٌ في وقته المناسب.. علماً بأنَّ أيدي ذوي الحاجة تقصر عن بلوغ أدنى حاجاتها فضلاً عن أوسع غاياتها ومقاصدها.. فإن شئتَ فتأمل في نفسك تجدها مغلولة الأيدي إزاء كثير مما يلزم حواسك الظاهرة، أو يشبع رغباتك الباطنة.. فقس على نفسك نفوس جميع الأحياء، وتأمل فيها تجد أن كل كائن منها يشهد بفَقره وحاجاته المقضيّة من غير حول منه ولا قوة على الواجب الوجود، ويشير بهما إلى وحدانيته سبحانه وتعالى، كما يدل عليه بمجموعه كدلالة ضوء الشمس على الشمس نفسها ويبين للعقل المنصف أنه سبحانه في منتهى الكرم والرحمة والربوبية والتدبير." ويخاطب بعد هذا البيان من يصر على غفلته

ويعمى عن آيات قدرة ربه ورحمته وحكمته، يخاطبه بقسوة يستحقها فيقول:

"فما أبغض جهلك.. وألعنَ غفلتك.. أيها الجاهل الغافل المكابر.. كيف تفسر هذه الفعالية الحكيمة والبصيرة والرحيمة؟! أبالطبيعة الصماء؟ أم بالقوة العمياء؟ أم بالمصادفة العشواء؟ أم بالأسباب الجامدة العاجزة؟"(الكلمات ٧٦٩)

ويدع كل من يقرأ هذا الكلام ليجيب بما يرى.

من دلائل القدرة الربانية

وقفنا في المقال السابق مع بداية جواب الأستاذ بديع الزمان سعيد النورسي رحمه الله لمن سأله عن الآية الكريمة:

﴿ سَنُرِيهِمْ ءَايَٰتِنَا فِى ٱلْءَافَاقِ وَفِىٓ أَنفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ ۗ أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدٌ ﴾

ورأينا كيف بدأ الأستاذ النورسي رحمه الله بالجواب من خلال نوافذ تدل على القدرة الربانية والحكمة الإلهية وكانت النافذة الأولى حول ما وفر الله تعالى للمخلوقات من الحاجات التي تعجز بذاتها عن توفيرها وفي ذلك دليل من أدلة كثيرة على الله تعالى، ونمضي مع الأستاذ سعيد النورسي رحمه الله في جوابه عن السؤال واستنباطه للأدلة من التدبر للآية الكريمة والتفكر في الوجود قال رحمه الله في الحديث عن النافذة الثانية لافتا النظر إلى قدرة الله تعالى التي ميزت المخلوقات وأعطت كلا منها شخصية مختلفة حتى عن بني جنسه:

"بينما تتردد الأشياء بين الوجود والتشخص وتحار بين طرق الإمكانات والاحتمالات غير المتناهية، إذا بها تُمنح صورة مميزة

لهـا، غايـةً في الانتظـام والحكمـة.. تأمـل في العلامـات الفارقـة الموجودة في وجه كُلٍّ إنسان، تلك العلامات الـتي تميّـزه عـن كـل واحد من أبناء جنسه، وأمعن النظر فيما أودع فيه بحكمة بديعة مـن حَوَاسٍّ ظـاهـرة ومشـاعـر باطنـة.. ألا يثبـت ذلـك أن هـذا الوجـه الصغير آية ساطعة للأحدية؟

فكمـا أن كـل وجـه يـدل -بمئـات الـدلائل -علـى وجـود صـانع حكـيم، ويشـهد علـى وحدانيتـه، فمجمـوع الأوجـه أيضـاً، وفي الأحيـاء كافـة تبـيّن للبصـيرة النافـذة أنهـا آيـة كـبرى جليلـة للخالق الواحد الأحد.

بعد هذا البيان البديع والدليل القاطع على القدرة والحكمة يـأتي تعقيبـه بقسـوة علـى مـن ينكـر الوجـود الإلهـي ويغفـل عـن الصانع الحكيم فيقول:

"فيـا أيهـا المنكـر.. أتقـدر أن تحيـل هـذه العلامـات والأختـام التي لا تقلد، أو أن تسند الآيـة الكـبرى للأحـد الصـمد السـاطعة في مجموعها.. إلى غير بارئها المصور؟ "(الكلمات ٧٦٩)

ويقـف الأسـتاذ النورسـي رحمـه الله علـى هـذا التنـوع الهائـل للكائنات من نبات وحيوان على هذه الأرض ولكل منها متطلبات في الإيجـاد والإمـداد والإحيـاء والإماتـة فمـن ذا الـذي يغفـل عـن

قيومية الله تعالى لهذه المخلوقات؟ ألها رب سواه يوجد ويمد ويحيي ويميت؟ يقول في النافذة الثالثة من النوافذ الدالة على الله سبحانه: "إنّ أنواع النبات، وطوائف الحيوان، المنتشرة على الأرض هي أكثر من أربعمائة ألف نوع وطائفة بل إن عدد أفراد قسم من تلك الطوائف -خلال سنة واحدة -هو أكثر من عدد البشرية منذ آدم عليه السلام إلى قيام الساعة. وكأنها جيش هائل عظيم، فنرى أن كل نوع من هذا الجيش له رزقه المختلف عن الآخر وصورته المتباينة، وأسلحته المتنوعة وملابسه المتميزة، وتدريبه الخاص وتسريحه المتفاوت من الخدمة.. وتجري هذه كلها في نظام متقن، ووفق تقدير دقيق. فإدارة هذا الجيش العظيم، وتربية أفراده، دونما نسيان لأحد ولا التباس، لهي آية ساطعة كالشمس للواحد الأحد. فمن ذا يستطيع أنْ يمدَّ يد المداخلة في هذه الإدارة المعجزة من دون مالكها القدير الذي لا حدّ لقدرته، ولا حدود لعلمه، ولا نهاية لحكمته، ذلك لأن الذي يعجز عن إدارة وتربية هذ الأنواع المتداخلة ببعضها والأمم المكتنفة بعضها في بعض، دفعةً واحدة وفي آن واحد، يعجز كلياً عن مباشرة خلق واحد منها، إذ لو حصلت مداخلته في أي منها لظَهَر أثرُه، وبان النقصُ والقصور:

﴿فَٱرۡجِعِ ٱلۡبَصَرَ هَلۡ تَرَىٰ مِن فُطُورٖ﴾ فلا فطور ولا نقص إذن فلا شريك". (الكلمات ٧٧٠)

ويمضي الأستاذ النورسي، رحمه الله، متدبرا متفكرا جاليا بنور اليقين شبهات الإلحاد ويلفت أنظارنا إلى استجابة الله تعالى إلى مسائل المخلوقات التي ترفع إليه سواء أكان ذلك بلسان الحال مما لا يملك النطق كالبذور والحيوانات أو بلسان المقال أو الاضطرار لدى الإنسان الذي حين يتأمل حياته يجد آثار استجابة الله تعالى الصمد الذي تصمد أي تتوجه إليه الخلائق كلها بحاجاتها.

قال الأستاذ النورسي رحمه الله في النافذة الرابعة الدالة على الله تعالى وقدرته وحكمته: "النافذة الرابعة هي استجابة الخالق لجميع الأدعية المنطلقة بلسان استعدادات البذور، وبلسان احتياجات الحيوانات، وبلسان اضطرار المستغيثين من بني الإنسان.. نعم، إنَّ الاستجابة لجميع هذه الأدعية غير المحدودة استجابة فعليةً، باديةٌ أمامنا، نشاهدها رأي العين فكما يشير كُلٌّ منها الى "الواجب الوجود" وإلى الوحدانية، فإن مجموع تلك الاستجابات تدل بالبداهة -وبمقياس أوسع وأعظم على خالق

رحيم كريم مجيب، وتوجُّه الأنظار اليه سبحانه."(الكلمات ٧٧٠)

وينظر الأستاذ النورسي إلى تتابع الخلق من غير توقف في أبدع صورة وفي غاية الإتقان وفي هيئة منسقة، أليس ذلك دليلا على الخالق البارئ المصور البديع الجميل؟ قال في النافذة الخامسة الدالة على القدرة والإبداع: "إذا أمعنا النظر في الأشياء، ولا سيما الأحياء، نشاهدها وكأنها قد خرجت من يد الخلق لتوها، وبرزت إلى الوجود بروزاً فجائياً... فبينما ينبغي أن تكون الأشياء المركبة آنياً وعلى عجل بسيطةَ التركيب ومشوهة الشكل، ومن دون إتقان، نراها تُخلَقُ في أتقن صنعة وأبدعها: هذا الإتقان والإبداع الذي يتطلب مهارة فائقةً.. ونراها في أروع نقش وأدق صورة: هذه الروعة والدقة التي تحتاج إلى صبر عظيم وزمن مديد.. ونراها في زينة فاخرة وجمال أخاذ: هذه الزينة وهذا الجمال اللذان يستدعيان آلات تجميل متنوعة، ووسائل زينة كثيرة... فهذا الإتقان المعجِّز، والصورة البديعة، والهيئة المنسقة، والإبداع الآني، كلّ منه يشهد على وجود الصانع الحكيم، ويشير إلى وحدانية ربوبيته. كما أن مجموعه يبيّن بوضوح (الواجب الوجود) القدير الحكيم، ويبين وحدانيته سبحانه. فيا

أيها الغافل عن ربه الحائر في أمر الموجودات هيا، بماذا توضح هذا الأمر وتفسره؟ أفتفسره بالطبيعة العاجزة البليدة الجاهلة؟ أم تريد أن تقترف بجهلك خطأ لا حدود له، فتقلد الطبيعة صفات الألوهية، وتنسب إليها بهذه الحجة معجزات قدرة ذلك الصانع الجليل المنزّه عن كل نقص وعيب، فترتكب ألف محال ومحال؟"(الكلمات ٧٧١)

ويترك الأستاذ النورسي، رحمه الله، من يتلقى كلامه في حال تفكر وتدبر: المؤمن يسجد لله بعقله وقلبه، والجاحد يظل في عماية من أمره إن لم يكشف ظلمات الجهل وغشاوة الهوى.

آيات بينات

ما زلنا مع جواب الأستاذ بديع الزمان النورسي رحمه الله على السؤال حول تفسير الآية الكريمة:

﴿ سَنُرِيهِمْ ءَايَٰتِنَا فِى ٱلْءَافَاقِ وَفِىٓ أَنفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ ۗ أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدٌ ﴾

وجاء جوابه في الوقوف على دلائل القدرة والحكمة الإلهية من خلال نوافذ استعرضنا من قبل خمسا منها مع نوافذ أخرى.

يقف بنا الأستاذ النورسي رحمه الله، في بداية النافذة السادسة مع آية كريمة تدعو إلى التفكر في خلق السماوات والأرض وتدل على انتظام ما في هذا الكون مما يدل على رب قدير ينظمه، يتجلى ذلك في آفاق السماوات وفي عالم النبات والحيوان وفي عالم الإنسان، وتلك نافذة عريضة كعرض السماوات والأرض تدل على القدير الحكيم: قال رحمه الله في النافذة السادسة مستهلا بآية قرآنية كريمة:

﴿إِنَّ فِى خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ وَٱلْفُلْكِ ٱلَّتِى تَجْرِى فِى ٱلْبَحْرِ بِمَا يَنفَعُ ٱلنَّاسَ وَمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مِن مَّآءٍ

فَأَحْيَا بِهِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَبَثَّ فِيهَا مِن كُلِّ دَآبَّةٍ وَتَصْرِيفِ ٱلرِّيَٰحِ وَٱلسَّحَابِ ٱلْمُسَخَّرِ بَيْنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ لَأَيَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾ (البقرة/١٦٤).

"هذه الآية الكريمة كما أنها تبين وجود الله سبحانه وتعالى وتدل على وحدانيته، فهي في الحقيقة نافذة عظيمة جداً تطل على الاسم الأعظم من الأسماء الحسنى. وزبدة خلاصتها:

أن جميع عوالم الكون علويّها وسفليّها، تدل بألسنة مختلفة على نتيجة واحدة، أي على ربوبية صانعٍ حكيمٍ واحد، وكما يأتي: إن جريان الأجرام في "السماوات" بمنتهى النظام لبلوغ غايات جليلة، ونتائج سامية - بتقرير علم الفلك نفسه - إنما يدل على وجود إلهٍ قدير ذي جلال ويشهد على وحدانيته وربوبيته الكاملة. كما أن التحولات المنتظمة في "الأرض" والمشاهَدة في المواسم لحصول منافع عظيمة ومصالح شتى - بتقرير الجغرافية - إنما تدل دلالة واضحة على ذلكم القدير ذي الجلال، وتشهد على وحدانيته وربوبيته الكاملة. ثم إن جميع "الحيوانات" التي تملأ البر والبحر والتي يُرْسَلُ رزقُ كُلٍّ منها برحمة واسعة، وتُكسى بأثواب متنوعة، بحكمة تامة، وتجهّز

بحواس مختلفة، بربوبية كاملة.. يشير كل منها إلى ذلك القدير ذي الجلال، ويشهد على وحدانيته، كما أن مجموعها ككل يدل معاً وبمقياس واسع جداً على عظمة الألوهية وكمال الربوبية.

وكذا الحال في "النباتات" الموزونة المنتظمة التي تفرش الأرض والبساتين والزروع، كل منها يدل على ذلك الصانع الحكيم، ويشير إلى وحدانيته بما تحمل من أزاهير جميلة، وما تنتج هذه الازاهير من ثمار موزونة، وما على هذه الثمار من نقوش رائعة، فكما أن كلاً منها على حدة يدل عل الصانع فإن مجموعَها يظهر جمال رحمته سبحانه، وكمال ربوبيته.

ثم إن "القطرات" المسخرة لحِكَمٍ غزيرة، ولغايات سامية، ومنافعَ جليلة، وفوائد جمّةً، والتي تُرسل من السحب الثقال المعلقة بين السماء والأرض، تدل بعدد القطرات على ذلك الصانع الحكيم، وتشهد على وحدانيته وكمال ربوبيته. كما أن "الجبال" الراسيات، وما في أجوافها من معادن، وما لكلٍ منها من خواص، وما ادّخر فيها من غايات شتى، والمعدّة لمصالح عدة، كل منها على حدة وبمجموعها معاً، تدل دلالة أقوى من الشمّ الرواسي على ذلك الصانع الحكيم وعلى وحدانيته وكمال

ربوبيته.

ثم إن أنواع "الأزاهير" الجميلة اللطيفة المنثورة عل التلال والروابي والصحارى، وقد أضفي عليها البهاء والجمال، كُلٌّ منها يدل على ذلك الصانع الحكيم ويشهد على وحدانيته، مثلما أن مجموعها العام يدل على عظيم سلطانه وكمال ربوبيته.

ثم إن أنواع "الأوراق" وأشكالها المنسقة، واهتزازاتها اللطيفة الجذابة في النباتات والأشجار والأعشاب كافة تشهد بعدد الأوراق على ذلك الصانع الحكيم، وعلى وحدانيته وكمال ربوبيته.

ثم إن "نمو الأجسام" بخطوات هادفة مطردة، وتجهيز كل منها بأنواع من الأجهزة المتوجهة معاً إلى تكوين الثمار، وكأنه توجُّهٌ شعوري، يجعل كل جسم نامٍ بأجزائه ومجموعه، يشهد لذلك الصانع الحكيم ويشير إلى وحدانيته، ويدل دلالة أعظم على قدرته المحيطة، وحكمته الشاملة، وصنعته الجميلة، وربوبيته الكاملة. ثم إن إيداع "النفس" في الجسد، وتمكين "الروح" من كل كائن حيواني بحكمة تامة، وتسليحه بأسلحة متنوعة، وتزويده بأعتدة مختلفة بنظام كامل، وتوجيهه الى مهمات جليلة، واستخدامه في وظائف متنوعة بحكمة تامة، يشير

إشارات بعدد الحيوانات بل بعدد أجهزتها وأعضائها إلى وجود ذلك الصانع الحكيم، ويشهد على وحدانيته، مثلما أن مجموعها الكلي يدل دلالة ساطعة على جمال رحمته وكمال ربوبيته.

ثم إن جميع "الإلهامات" الغيبية التي ترشد قلوب الناس وتُفقِّهها بالعلوم والحقائق، وتُعلّم الحيوان الاهتداء إلى توفير ما يحتاجه من حاجات... هذه الإلهامات الغيبية بأنواعها المختلفة تُشعِرُ كُلَّ ذي بصيرة بوجود رب رحيم وتشير إلى ربوبيته.

ثم إن جميع "المشاعر" المتنوعة والحواس المختلفة - الظاهرة منها والباطنة - والتي تجني الأزاهير المعنوية من بستان الكون، وكون كل حاسة منها مفتاحاً لعالم من العوالم المختلفة في الكون الواسع، تدل كالشمس على وجود صانع حكيم عليم، وخالق رحيم، ورزاق كريم، وتشهد على واحديته وأحديته وكمال ربوبيته.

فهذه النوافذ الاثنتا عشرة، كلٌ منها تمثل وجهاً لنافذة واسعة، فتدل بأثني عشر لوناً من ألوان الحقيقة على أحدية الله سبحانه، ووحدانيته وكمال ربوبيته."(الكلمات ٧٧١ -٧٧٣)

ويختم النورسي رحمه الله هذا الاستعراض الواسع لآيات الله تعالى التي ندركها بالتفكر والتدبر والتبصر وشق حجاب

الإلفة التي تحول الآيات الباهرة إلى أمور معتادة، يحتمها بخطاب لمن ينكر وجود الله تعالى وينسب آياته البينات إلى طبيعة صماء ويتجاهل دلائل القدرة البديعة البادية لكل ذي عين وقلب فيقول: "فيا أيها المكذّب الشقي!.. كيف تستطيع أن تسدَّ هذه النافذة الواسعة سَعَةَ الأرض.. بل الواسعة سعة مدارها السنوي.؟! وبأي شئ يمكنك أن تطفئ منبع هذا النور الساطع كالشمس؟. وبأي ستار من ستائر الغفلة يمكنك أن تخفيه..؟! (الكلمات ٧٧٣)

نعم لا يسد هذه النافذة إلا من عمي قلبه وبصره وحواسه كلها

وتظل هذه الأسئلة تلح على العقل المفكر والحواس التي لم تفقد وظيفتها، والقلوب التي لم يصبها العمى.

طرق دالة على الله تعالى

ما زلنا مع الأستاذ بديع الزمان سعيد النورسي، رحمه الله، نتفكر في آيات الله تعالى، وهو يجول بنا في أنحاء هذا الوجود ونحن نسمع صدى قوله تعالى:

﴿ سَنُرِيهِمْ ءَايَـٰتِنَا فِى ٱلْـَٔافَاقِ وَفِىٓ أَنفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ ﴾.

ونمضي مع الأستاذ النورسي من أفق إلى آخر وهو يدلنا على المزيد من الآيات الدالة على الله تعالى التي تزيدنا به معرفة، لعلنا من بعد لا ننظر يمينا أو شمالا إلا وتلوح لنا آيات الله تعالى، فنردد في كل وقت: سبحان الله، ونقول:

﴿رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَـٰذَا بَـٰطِلًا سُبْحَـٰنَكَ ﴾ (آل عمران/١٩١).

ويقف بنا الأستاذ النورسي في النافذة السابعة من النوافذ التي فتحتها له تلك الآية الكريمة:

﴿ سَنُرِيهِمْ ءَايَـٰتِنَا فِى ٱلْـَٔافَاقِ وَفِىٓ أَنفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ ﴾ (فصلت/٥٣).

يقف بنا على أربعة طرق هي قوانين ربانية تتجلى في الكون لمن يتفكر وتؤدي بمن يتدبرها وتنبه إليها إلى نافذة عظيمة من نوافذ الإيمان، وهل يزيد الإيمان إلا بالتدبر لآيات الكتاب المقروء والتفكر في آيات الكتاب المنظور؟

أول قانون و طريق من الطرق الأربعة هو هذا النظام الذي يضبط الموجودات وهذه الموازنة في العناصر وتشكل المخلوقات في صورمتنوعة في أبهى زينة تتخذ أشكالا مختلفة، وهذه السهولة التي نجدها في انبعاث الموجودات وبتشابهها في الماهيات المكونة لها وفي استجابتها للأحداث الكونية.

يقول الأستاذ النورسي رحمه الله في هذا الطريق ودلالته على الله تعالى: "إن ما يبدو عياناً في جميع المصنوعات المبثوثة على صفحات الكون من مظاهر النظام والموازنة التامة، وما تتشكل فيه من صور الزينة والجمال، وما يشاهد من سهولة متناهية في انبعاثها إلى الوجود وتملكها للحياة، وما هي عليه من تشابه بعضها للبعض الآخر في المظاهر أو الماهيات فضلاً عن استجاباتها الفطرية الواحدة للأحداث الكونية.. كل من هذه المظاهر والخصائص دليل واسع سعة الكون على الخالق القدير، وشهادة صادقة قاطعة على وحدانيته سبحانه وقدرته المطلقة".

والقانون والطريق الثاني الذي تجلى للأستاذ النورسي رحمه الله بالتفكر والتدبر في مخلوقات الله هو إيجاد المركبات المنتظمة التي لا تعد ولا تحصى من عناصر جامدة لا تملك إرادة ولا عقلا ولا يمكن أن تكون هي الفاعلة في أمر تكوينها مما يجعلها تدل على الله تعالى أجلى دلالة، يقول الأستاذ النورسي رحمه الله تعالى: "وكذا إن إيجاد مركبات" منتظمة لا تعد ولا تحصى من عناصر جامدة بسيطة التركيب، يشهد شهادة قاطعة بعدد المركبات على ذلك الخالق القدير الواجب الوجود سبحانه، ويشير إشارة صريحة إلى وحدانيته، فضلاً عن أن مجموعها العام يبين بياناً باهراً كمال قدرته ووحدانيته."(الكلمات٧٧٤)

والقانون والطريق الثالث الدال على الله تعالى هو ظاهرة التمايز في الموجودات التي تتجدد في مواسمها المختلفة من غير أن تختلط أو تتشابه مما يدل على الله تعالى القادر الحكيم، يقول الأستاذ النورسي رحمه الله: "وكذا إن ما يشاهد من "تمايز" واضح و "افتراق" كامل أثناء تجدد الموجودات - بالتحليل والتركيب - رغم كونها في منتهى الاختلاط والامتزاج يدل دلالة واضحة على ذلك الحكيم المطلق الحكمة، والعليم المطلق العلم، والقدير المطلق القدرة، ويشير إلى وجوب وجوده سبحانه

وكمال قدرته.

فخذ مثلاً: تسنبل الحبوب المدفونة في جوف الأرض، ونمو أصول الأشجار إلى نباتات مختلفة وأشجار متباينة، رغم الاختلاط والتشابك، وكذلك تميُّز المواد المختلفة الداخلة في النباتات والأشجار المتنوعة إلى أوراق زاهية وألوان جميلة، وثمار لطيفة رغم الامتزاج الشديد. بل حتى تمايز وتجزؤ المواد الغذائية الدقيقة الداخلة في حجيرات الجسم بحكمة كاملة وبميزان دقيق رغم الامتزاج والاختلاط"

والقانون والطريق الرابع الدال على الله تعالى هو قيام الذرات الجامدة العاجزة بمهام في غاية الانتظام والقدرة والحكمة مما يدل دلالة قاطعة على أنها لا تعمل بنفسها بل لها خالق حكيم خبير قال الأستاذ النورسي رحمه الله في بيان هذا القانون الذي يدل على ربنا سبحانه:

"وكذا إن تسخير (ذرات) جامدة عاجزة جاهلة للقيام بمهام في غاية الانتظام والشعور والقدرة والحكمة، وجعل (عالم الذرات) ما يشبه مزرعة عظيمة هائلة تزرع فيها كل حين عوالم، وتحصد أخرى بحكمة تامة.. كلها دلائل واضحة على وجوب وجود ذلكم القدير ذي الجلال، وذلكم الخالق ذي الكمال،

وتشهد شهادة قوية على كمال قدرته، وعظيم ربوبيته، وعلى وحدانيته وكمال ربوبيته." (الكلمات ٧٧٤)

ويختم الأستاذ النورسي، رحمه الله، حديثه عن هذه القوانين التي تجلت له طرقا إلى معرفة الله بالتدبر والتعقل والتفكر والخروج من ظلمات الغفلة إلى نور الوعي واليقظة، تلك الغفلة التي تحول بين الإنسان وما يمر عليه من الآيات البديعة ودلائل القدرة البينة في نفسه ابتداء وفي كل ما حوله من المخلوقات في الأرض وفي جو السماء، في الماء الذي يشربه والطعام الذي يتناوله، وفي ما وراء ذلك من أسرار الإبداع الإلهي الذي لا يغفل عنه إلا من عميت بصيرته وتعطلت حواسه عن الإدراك.

يقول الأستاذ النورسي رحمه الله في ختام حديثه عن القوانين الأربعة والطرق الدالة على الله تعالى مخاطبا من يغفل عنها: "وهكذا تؤدي بنا هذه الطرق الأربع الواسعة إلى نافذة عظيمة جداً تنفتح على المعرفة الإلهية، حيث يطل منها نظر العقل الحاد على وجود الخالق الحكيم.

فيا أيها الغافل الشقي بغفلته! إن لم تُرِد بعد هذا كله رؤيته ومعرفته عدّ نفسك من الأنعام!"(الكلمات ٧٧٥)

أدلة على الله تعالى

نمضي مع بديع الزمان سعيد النورسي رحمه الله تعالى في رحلة التفكر والتدبر لنطل من النافذة الثامنة من نوافذ الإيمان التي تشير إلى ما أجمع عليه الأنبياء والمرسلون الذين تعاقبوا في تاريخ البشرية زمانا ومكانا من: إيمان بالله تعالى، وتوحيد له، ودعوة إليه، وما وافقهم فيه الأولياء الصالحون الذين نور الله تعالى بصائرهم فرأوا دلائل القدرة الإلهية بالكشف والإلهام فصار الأمر لديهم يقينا لا يحتمل الشك أو الريب، وتوصل إلى ذلك بالدليل والبرهان العلماء الباحثون الراسخون في العلم الذين اكتشفوا قوانين الوجود بالبحث والنظر العميق فكان علمهم تعزيزا لدعوة الإيمان، كل أولئك أجمعوا على أن لهذا الكون ربا خالقا حكيما وأنه لم يوجد صدفة ولا تمضي فيه الأمور عبثا، وكفى بإجماع هؤلاء الصفوة من البشر دليلا على الله تعالى، قال الأستاذ سعيد النورسي رحمه الله:

"إن جميع الأنبياء عليهم السلام الذين هم أصحاب الارواح النيّرة في النوع الإنساني مستندين إلى معجزاتهم الظاهرة الباهرة، وجميع الأولياء الذين يمثلون أقطاب القلوب المنورة

معتمدين على كشفياتهم وكراماتهم، وجميع الأصفياء العلماء الـذين يمثلـون أربـاب العقـول النورانيـة مسـتندين إلى تحقيقـاتهم العلمية.. يشهدون جميعاً على وجوب وجود الواحد الأحد الخـالق لكل شيء، ويدلون على كمـال ربوبيتـه ووحدانيته.هـذه النافـذة واسعة جداً ومنورة مضيئة ساطعة، وهي مفتوحة أبداً لإظهار ذلك المقام الرفيع للربوبية."(الكلمات ٧٧٥)

ويعقـب الأسـتاذ النورسـي علـى هـذه الحقيقـة الناصـعة الـتي تجلـت لـدى صـفوة البشـر بمخاطبـة مـن ينكـر حقـائق الوجـود، ويتجاهل حقائق الإيمان، ومن هو في ضلال عن ربه، لا يعرفـه ولا يعرف حقه فهو في حيرة وضلال وقلق وضنك، يخاطبه في أسـلوب فيـه تبكيـت لعلـه يفيـق مـن غفلتـه فيقـول: "فيـا أيهـا المنكـر الحيران!.. بِمَ تَعْتَدّ وتفتخر، حتى لا تلقـي لهـذه الحقـائق سمعـاً؟! لعلّك تظن أنك بإطباق جفنيك تستطيع أن تجعل نهار الـدنيا لـيلاً.. ألا هيهات..!"(الكلمات ٧٧٥)

ويقـف الأسـتاذ النورسـي رحمـه الله في النافـذة التاسـعة علـى ظاهـرة عبادة الكائنات الحية مـن ذوي الشـعور والإدراك مـا ظهـر منهـا لنـا في عـالم الشـهادة ومـا بطـن في عـالم الغيـب وانقيـاد هـذه الكائنـات لأمـر الله تعـالى في انتظـام وامتثـال فيجـد فيهـا دلـيلا

يشير إلى الواحد الأحد الذي يعرفه الكون كله ويعبده وينيب إليه، يقول رحمه الله تعالى: "إن (العبادات) التي تؤديها الكائنات بأسرها تدل بالبداهة على معبود مطلق.. نعم!.. إن العبودية الخالصة التي يؤديها الملائكة والروحانيات عموماً، والثابتة بشهادة الذين عَبَروا إلى عالم الأرواح من البشر، واستبطنوا بواطن الوجود. والتقوا هناك الملائكة والروحانيات، وشاهدوهم في عباداتهم وتسابيحهم.وقيام جميع ذوي الحياة - مهما كانوا - بمهامهم التي خلقوا لها على أتم نظام، وامتثالهم للأوامر الإلهية امتثال عبد مأمور. وأداء جميع الجمادات خدماتها المتسمة بعبودية كاملة على أتم طاعة..

إن جميع هذه العبادات المشاهدة تشير إلى المعبود الحق الواجب الوجود وإلى وحدانيته."(الكلمات ٧٧٥)

وليس أمر هذه العبادة العامة الشاملة للمخلوقات أمرا قائما على انقياد أعمى بل هو مبني على بصيرة لدى من يملكون القدرة على التفكر والتدبر وعلى الفطرة التي لم يشوهها انحراف الشهوات ولا ضلال الشبهات، فتلك العبادة بعض مظاهر قيام المخلوقات بواجب العبودية لإدراكها حق الربوبية، وفي تلك العبادة لله تعالى ألوان من الوجد اليقيني الذي يجعل العابد لله

تعالى المحب له على بينة من أمره، فهي لدى الأنبياء والأولياء والصالحين مبنية على اليقين الذي لا يقبل الشك، فهي صلة وتواصل بين العابد والمعبود يجد العابد فيها لذة وآثارا تجعله في المرتبة التي قال عنها الرسول ﷺ في وصف الإحسان: "أن تعبد الله كأنك تراه" يقول الأستاذ النورسي رحمه الله:

"إن جميع (المعارف) الحقة التي يحملها جميع العارفين نتيجة إخلاصهم في عبوديتهم للّه.. والشكر المثمر النابع من صميم قلوب الشاكرين.. والأذكار المنورة التي ترطب ألسنة الذاكرين.. والحمد المزيد للنعمة الذي يلهج به الحامدون.. والتوحيد الحقيقي المصدَّق بآيات جميع الموجودات الذي يبثه الموحدون.. والحب الإلهي وعشقه الصادق الذي يشيعه المحبون والواجدون.. ورغبات المريدين الخالصة في الله، وحزم إرادتهم في السير إليه.. والإنابة الصادقة، والتوسل الحزين لدى المنيبين..

كل هذه الظواهر المنبعثة من جميع هؤلاء الذين يحمل كل منهم قوة التواتر والإجماع، تدل دلالة قوية على وجوب وجود ذلكم المعبود الأزلي؛ المعروف، المذكور، المشكور، المحمود، الواحد، المحبوب، المرغوب، المقصود، وتدل على كمال ربوبيته ووحدانيته." (الكلمات ٧٧٦)

ويشير الأستاذ النورسي رحمه الله إلى ثمرات العبادة لله التي يجدها العابدون وهي عندهم دليل قاطع على الرب المعبود سبحانه فيقول: "ثم إنّ جميع العبادات المقبولة التي يتعبد بها الكاملون من الناس، وما ينبعث من تلك العبادات المُرضية من فيوضات ومناجاة ومشاهدات وكشفيات، جميعها تدل دلالة قوية جداً على ذلك الموجود الباقي، وذلك المعبود الأبدي وعلى أحديته وكمال ربوبيته.

فهذه النافذة المضيئة والواسعة جداً، تنفتح من ثلاث جهات انفتاحاً على الوحدانية."(الكلمات ٧٧٦)

في هذه النافذة نستمد الدليل من تواتر عبادة الكائنات لله تعالى، ومن المعارف والمشاعر التي تتولد في قلوبهم نورا يقينيا ومن ثمرات العبادات التي تتجلى في حياة العابدين المقربين كل ذلك يقودنا إلى الله تعالى ويفتح لنا نافذة نور وهداية تجعل إيماننا على بصيرة، وتجعله يقينا لا يقبل الشك ولا يتأثر بضلالات الضالين المضلين الذين يعيشون في الظلمات التي وصفها ربنا سبحانه في سياق الحديث عن نور الإيمان فقال:

﴿أَوَمَن كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَٰهُ وَجَعَلْنَا لَهُۥ نُورًا يَمْشِى بِهِۦ فِى ٱلنَّاسِ كَمَن مَّثَلُهُۥ فِى ٱلظُّلُمَٰتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِّنْهَا ۚ﴾ (الأنعام/١٢٢)

ما أجملها من لحظات ننتزع فيها أنفسنا من مشاغل الحياة التي تملأ القلب والحواس وتلهينا عن آيات الله المبثوثة في الوجود ونحس بهذه اللحظات نورا يملأ حواسنا، وهداية تغمر وجودنا وحياة تفيض في قلوبنا تجعل ألسنتنا رطبة بذكر الله وعقولنا وقلوبنا مستضيئة بعظيم آياته.

قانون التعاون دليل على الله

نطل الآن من النافذة العاشرة التي افتتحها الأستاذ النورسي رحمه الله بقول الله تعالى وهو يعدد لنا بعض آيات الله تعالى علينا ويذكر نعمه التي لا تحصى:

﴿وَأَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجَ بِهِۦ مِنَ ٱلثَّمَرَٰتِ رِزْقًا لَّكُمْۖ وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلْفُلْكَ لِتَجْرِىَ فِى ٱلْبَحْرِ بِأَمْرِهِۦۖ وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلْأَنْهَٰرَ ﴿٣٢﴾ وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ دَآئِبَيْنِۖ وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ ﴿٣٣﴾ وَءَاتَىٰكُم مِّن كُلِّ مَا سَأَلْتُمُوهُۚ وَإِن تَعُدُّوا۟ نِعْمَتَ ٱللَّهِ لَا تُحْصُوهَآۗ﴾ (إبراهيم/ ٣٢ – ٣٤).

ونجد الأستاذ رحمه الله يستنبط من هذه الآيات ما سماه قانون التعاون، ويجعل هذا القانون دالا على الله تعالى، ونافذة نطل منها على آلائه التي لا تعد، وتجعل العقل الواعي، والقلب الفطن يوقن أن لهذا الكون خالقا ومدبرا عليما حكيما رتب أموره وهيأه في أحسن حال ليمضي للغاية التي خلقها، قال رحمه الله تعالى بعد إيراد الآيات الكريمة السالفة:

"إن معاونة الموجودات بعضها للبعض الآخر وتجاوبها فيما بينها، وتساندها في الوظائف والواجبات.. يدل على أن كل المخلوقات تحت تربية ورعاية مُربٍّ واحد أحد. وأن الكل تحت أمر مدبر واحد أحد.. وأن الكل تحت تصرف واحد أحد.. ذلك لأن "دستور التعاون" بين الموجودات، يجري ابتداءً من الشمس، التي تهيئ بأمر الله لوازم الحياة للأحياء، ومن القمر الذي يعلمنا المواقيت، وانتهاءً إلى إمداد الضوء والهواء والماء والغذاء لذوي الحياة، وإمداد النباتات للحيوانات، وإمداد الحيوانات للانسان، بل حتى امداد كل عضو من أعضاء الجسم للآخر، وإمداد ذرات الغذاء لحجيرات الجسم.. فخضوع هذه الموجودات الجامدة الفاقدة للشعور وانقيادها لدستور التعاون وارتباطها معاً ارتباط تفاهم وتجاوب في منتهى الحكمة، وفي منتهى الإيثار والكرم، وجعل كل منها يسعى لإغاثة الآخر وإمداده بلوازم حياته، ويهرع لقضاء حاجياته وإسعافه، تحت ظل قانون الكرم وناموس الرأفة، ودستور الرحمة.. كل ذلك يدل بداهة على أن جميعها مخلوقات مأمورات ومسخرات عاملات للواحد الأحد، الفرد الصمد، القدير المطلق القدرة، والعليم المطلق العلم، والكريم المطلق الكرم." (الكلمات ٧٧٦ -٧٧٧).

بعد هذا الدليل الذي لا ينكره إلا من أنكر عقله وهو يدعي العلم يقول للمنكر لله تعالى ناسب الكون وما فيه إلى الطبيعة العمياء، والصدفة: "فيا أيها المتفلسف المفلس! ما تقول في هذه النافذة العظيمة؟ أيمكن للمصادفة التي تعتقد بها أن تتدخل في هذه الأمور..؟" (الكلمات ٧٧٧)

ونطل من النافذة الحادية عشرة مع بديع الزمان النورسي، رحمه الله، على أفق جديدة من نافذة جديدة هي نافذة القلب الذي يطمئن إن آمن ويرد الكون وما فيه إلى الواحد الأحد، ويشقى شقاء لا حد له إن رد الأشياء إلى آلهة متعددة أو لم يؤمن بالله الواحد الأحد، فالإيمان نعمة لا حد لها.

وقد جعل الأستاذ النورسي رحمه الله مدخل تلك النافذة قوله تعالى: ﴿أَلَا بِذِكْرِ ٱللَّهِ تَطْمَئِنُّ ٱلْقُلُوبُ﴾ (الرعد: ٢٨).

وقال بعد ذلك مفصلا ما يريد قوله في إشارات بليغة تحتمل الشرح الطويل والبيان المفصل لمن أراد: "إنه لا خلاص للقلوب والأرواح من قبضة القلق الرهيب، ومن دوامات الاضطراب والخوف، ومن ظمأ الضلالة وحرقة نار البعد عن الله إلا بمعرفة خالق واحد أحد.. إذ ما إن يُسلّم أمر القلوب والأرواح، وأمر كل الموجودات إلى خالق واحد أحد حتى تجد راحتها، وتحظى

بخلاصها من عناء تلك الزلازل النفسية المدمّرة وتسكن من ذلك القلق وتستقر وتطمئن..لأنه إن لم يُسنَد أمر الموجودات كافة إلى واحد أحد، فسَيُحالُ خلق كل شئ إذن إلى ما لا يُحدُّ من الأسباب.. وعندها يكون إيجاد شيء واحدٍ مشكلاً وعويصاً كخلق الموجودات كلها، وإن فُوِّض أمرُ الخلق إلى الله، فقد فوّض إذن ما لا يحدُّ من الأشياء إلى الواحد الأحد، وإلاّ فسيكون أمر كل شيء بيد ما لا يحدُّ من الأسباب، وفي هذه الحالة يكون خلق ثمرة واحدة مثلاً فيه من المشكلات والصعوبات بقدر الكون كله، بل أكثر. " ومن عادة الأستاذ بديع الزمان النورسي رحمه الله أن يقرب الأفكار بأمثال يضربها وذلك هو منهج القرآن الكريم في كثير من مواضعه، ولتقريب فكرة التوحيد والشرك ضرب المثل الآتي، قال:

"ولنوضح ذلك بمثال: فكما أن تفويض إدارة جندي واحد إلى أمراء عديدين فيه مشاكل عديدة جداً، بينما تفويض إدارة مائة جندي إلى ضابط واحد فيه سهولة بالغة كأدارة جندي واحد، كذلك اتفاق ما لا يحد من الأسباب في إيجاد شيء واحد فيه مئات الأضعاف من الإشكالات. بينما في إيجاد الواحد الأحد للأشياء العديدة، فيه مئات الأضعاف من السهولة."

(الكلمات٧٧٧ -٧٧٨)

ويشير بعد ذلك إلى طبيعة الإنسان الذي في نفسه فطرة تدله على ربه فلا يجد راحة حقيقية إلا بالصلة به والتوجه إليه، والتوكل عليه، وإلا كان القلق والعبث عنوان حياته

قال الأستاذ رحمه الله: "وهكذا فما يستشعره الإنسان من لهفة إلى الحقيقة وتَوقٍ إليها، يجعله دائم القلق والاضطراب ما لم يبلغها. فلا يجد الاطمئنان والسكون إلاّ بتوحيد الخالق ومعرفة الله سبحانه ذلك لأن سلوك سبيل الكفر الذي فيه ما لا يحد من الاضطرابات والمشاكل محال، ولا حقيقة له أصلاً. بينما التوحيد فيه من السهولة المطلقة في خلق الموجودات بهذه الكثرة والإبداع بحيث لا يدع للإنسان مجالاً إلاّ سلوكه، ولا غرو لأنه أصيل وحقيقي.

"ويخاطب من لم يفتح قلبه لنور ربه وما زال غارقا في الظلمات:

فيا مَن يتبع الضلالة.. ويا أيها الشقي المسكين!.. تأمل طريق الضلالة ما أظلمه وما أشده إيلاماً لوجدان الإنسان، فلا تحاول قط إن تقحمه.. ثم تأمل في طريق التوحيد فما أصفاه وما أبسمه فاسلكه وانجُ بنفسك!"(الكلمات ٧٧٨)

ويمضي بنا الأستاذ بديع الزمان النورسي إلى النافذة الثالثة عشرة ويستفتحها بقوله:

﴿سَبِّحِ ٱسْمَ رَبِّكَ ٱلْأَعْلَى ۝١ ٱلَّذِى خَلَقَ فَسَوَّىٰ ۝٢ وَٱلَّذِى قَدَّرَ فَهَدَىٰ﴾ (الأعلى: ١ – ٣)

ويقف من خلال هذه الآيات على ما توحي به من دلائل على الله تعالى تتمثل في هذه التسوية للخلق وهداية كل مخلوق إلى ما خلق له وكثير من المخلوقات ليست عاقلة بل هي تمضي على الفطرة التي فطرت عليها، وتكون على صورة محددة وفي شكل يناسب الغاية من خلقه، يقول الأستاذ رحمه الله:

"هذه الآيات الكريمة ترشدنا إلى أن جميع الأشياء ولا سيما الأحياء تظهر إلى الوجود وكأنها خرجت من قالب مصمَّم تصميماً حكيماً يَهَبُ لكلّ شيء مقداراً منتظماً وصورةً بديعة يشفّان عن حكمة واضحة. فنرى في الجسم خطوطاً متعرجة، وانحناءات وانعطافات تنشأ عنها فوائد شتى للجسم، ومنافع عديدة تسهل له أمر أداء وظيفته التي خلق من أجلها على أتم وجه. فالموجود له صورة معنوية في علم الله تمثل مقدراته الحياتية، وهي تلازم الصورة المادية وتنتقل معها في مراحل نموها، ثم تتبدل تلك الصورة والمقادير في مسيرة حياته تبدلاً يلائم الحكمة في

خلقه وينسجم كلياً مع المصالح المركبة عليه، مما يدل بالبداهة على أن صور تلك الأجسام ومقاديرها تُفصَّل وتُقدَّر تقديراً معيناً في دائرة القدر الإلهي، الجليل الحكيم ذي الكمال، وتُنظَّم تلك الصور وتُنسَّق بيد القدرة الإلهية وتمنحها الوجود المعيّن المقدّر. فتلك الموجودات غير المحدودة تدل على الواجب الوجود، وتشهد بألسنةٍ لا تحد على وحدانيته وكمال قدرته. تأمّل فيما يحويه جسمك وأعضاؤك أيها الإنسان من حدود متعرجة والتواءات دقيقة.. وتأمل في فوائدها ونتائج خدماتها وشاهد كمال القدرة في كمال الحكمة". (الكلمات ٧٧٩)

(وإن من شيء إلا يسبح بحمده)

نمضـي مـع الأسـتاذ بـديع الزمـان النورسـي رحمـه الله في النافذة الثالثة عشرة التي بدأها بقوله سبحانه:

﴿وَإِن مِّن شَيۡءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمۡدِهِۦ﴾ (الإسراء/ ٤٤).

وهي نافذة نرى من خلالها أن الوجود كله يسبح بحمد الله بلسان الحال أولسان المقال، وهذا التسبيح يدركه من يرى تناسق الوجود، ويرى كيف يدل هذا الوجود بكل جوانبه وتفاصيله على خالق حكيم مدبر، فالكون لا تناقض فيه ولا تفاوت ولا تعارض، بل كل جزء في الوجود يدل على الله، ويعرفه ويعرف به، ولكن إدراك ذلك يحتاج إلى فطرة سوية تحسن استقبال الإشارات الصادرة عن كل جوانب الوجود، قال الأستاذ بديع الزمان النورسي رحمه الله وقد افتتح كلامه بقول الله تعالى: ﴿وَإِن مِّن شَيۡءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمۡدِهِۦ﴾:

"إن كل شيء يذكر خالقه ويسبّحه بلسانه الخاص، كما هو المفهوم من هذه الآية الكريمة. نعم، إن التسبيحات المرفوعة من قبل الموجودات سواء بلسان الحال أو المقال، تدل دلالة واضحة

على وجود ذات مقدسة لواحد أحد..

نعم، إن دلالة الفطرة صادقة، وشهادتها لا تردّ. ولا سيما إذا كانت الشهادة صادرة عن دلالة الحال، وبخاصة إذا توافرت الدلالات من جهات عدة، فهي شهادة صادقة لا تقبل الشك قطعاً.

فتأمل الآن في صور الموجودات المتناسقة، تَرَها قد اتفقت كما تتفق الدوائر المتداخلة في توجهها نحو نقطة المركز؛ لذا فهي تنطوي على دلالات بلسان الحال وبأنماط لا حدَّ لها وعلى شهادات الفطرة بأنواع لا حدّ لها، إذ كل صورة منها لسان شاهد بحد ذاته. وهيئتها المتناسقة هي الأخرى لسان شاهد صادق، بل حياة الموجود كلها لسان ذاكر بالتسبيح.

ولقد أثبتنا في الكلمة الرابعة والعشرين؛ أن جميع هذه التسبيحات البادية للمتأمل، والمنبعثة بألسنة الحال أو المقال من جميع الموجودات وتحياتها وشهاداتها الدالة على ذات مقدسة مباينة، تُظهر بوضوح ذلك الواحد الأحد الواجب الوجود، وتدل على كمال ألوهيته سبحانه. "(الكلمات ٧٧٩)

ويفتح الأستاذ بديع الزمان النورسي، رحمه الله، النافذة الرابعة عشرة بمجموعة من الآيات التي نطل منها على خزائن رحمة الله الذي بيده خزائن كل شيء، وملكوت كل شيء،

وهو آخذ بناصية كل دابة، وهو على كل شيء حفيظ وهذه الآيات هي قوله تعالى:

﴿ قُلْ مَنۢ بِيَدِهِۦ مَلَكُوتُ كُلِّ شَىْءٍ ﴾ (المؤمنون/٨٨)

﴿ وَإِن مِّن شَىْءٍ إِلَّا عِندَنَا خَزَآئِنُهُۥ ﴾ (الحجر/٢١)

﴿ مَّا مِن دَآبَّةٍ إِلَّا هُوَ ءَاخِذٌۢ بِنَاصِيَتِهَآ ﴾ (هود/٥٦)

﴿ إِنَّ رَبِّى عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ حَفِيظٌ ﴾ (هود/٥٧).

إن هذه الآيات الكريمة تفتح أعيننا على جوانب العطاء والخير في هذا الوجود من حولنا، ولو تدبر الإنسان في هذه الأرض التي يعيش فيها لوجد أنها معدّة لحياته مجهزة بكل ما يلزمه، وأن ما يحتاجه يتجدد حينا بعد حين، وفق حاجات الكائنات التي تعيش على هذه الأرض، وهي لا تصنع أرزاقها ولا تحمله على ظهرها ولا تخزنه على مدى عمرها، لكن الله تعالى الخالق الرازق هو الذي يمدها بما تحتاج إليه، وما أجمل أن يتأمل الإنسان الفصول المختلفة ليرى تجدد انفتاح أبواب خزائن الرزق وفق حاجات الكائنات، يقول بديع الزمان النورسي رحمه الله:

"يفهم من هذه الآيات الكريمة أن كل شيء، في كل شأنٍ من شؤونه، مفتقرٌ إلى الخالق الواحد الأحد ذي الجلال. فبإلقاء نظرة فاحصة على ما هو منبسط بين أيدينا من موجودات الكون، نشاهد مظاهرَ قوةٍ مطلقة تتضح من خلال ضعفٍ مطلقٍ مشاهَدٍ..

ونشاهد آثارَ قدرة مطلقة تَبين من بين ثنايا عجز مطلقٍ ملموس. كالحالات الخارقة التي تظهرها بذور النباتات وأصولها أثناء نموها وانتباه العقد الحياتية فيها.

ونرى أيضاً مظاهر غنى مطلق تتظاهر ضمن فقر مطلق وجدب تامّ. كما في الثروة الطافحة، وأوضاع الخصب الغامر للأرض والنباتات في الربيع بعد أن كانت في يبوسة وجدب في الشتاء.

ونرى ترشحات حياة مطلقة في بواطن جمود مطلق، وخمود تام، كما هو في انقلاب العناصر الجامدة - كالتراب والماء إلى مواد تنبض بالحياة في الكائنات الحية.

ونرى مظاهر شعور كامل طَي جهل مطبق، كما هو في حركات كل شئ وجريانه - ابتداءً من الذرات إلى المجرات -

تلك الحركات المتسمة بالشعور الكامل والانسجام التام مع نظام الكون كله، والملائمة ملاءمة تامة مع مقتضيات الحياة ومطاليب الحكمة المقصودة من الوجود.فالقدرة الكامنة في الضعف والعجز.. والقوة التي تتراءى ضمن معدن الضعف..

والثروة والغنى الموجودان في ذات الفقر.وأنوار الحياة والشعور المحيط المشعَّان من خلال الجمود والجهل..فكل مظهر من هذه المظاهر يفتح من جانبه نوافذ تظهر بالبداهة والضرورة وجوب وجود ووحدانية ذات مقدسة لقدير مطلق القدرة. وغني مطلق الغنى، لقوي مطلق القوة وعليم مطلق العلم. وحي قيوم.فضلاً عن أن مجموعها يشهد على وحدته، ويبين الصراط السوي بياناً واضحاً وبمقياس أعظم." (الكلمات ٧٨٠)

ويعقب الأستاذ النورسي رحمه الله على هذا الكلام الذي يفتح نوافذ الحواس والعقل والقلب على آيات الله الدالة على خزائنه التي تتفجر ألوانا من الرزق عبر التراب الذي يفيض بألوان الخضر والفواكه والنبات التي تلبي حاجات البشر والحيوان والطير، في دقة متناهية، وانتظام مدهش بديع يجعل من يتفكر فيها يسبح بحمد ربه، ويرى تجليات رحمته وفضله وكرمه،

يعقب على ذلك مخاطبا من عمي قلبه وانطمست حواسه، وتدنى في تفكيره عن مستوى الحيوانات التي لم توهب من العقل مثل ما وهب، ونسب الكون وما فيه من إبداع إلى الطبيعة، ذلك الاسم الذي لا دلالة حقيقية له، بل هو وهم يصنعه من لم يؤمن بالله رب العالمين يقول الأستاذ النورسي رحمه الله:

"فيا أيها الغافل المتردي في مستنقع الطبيعة! إن لم تعرف عظمة القدرة الربانية، ولم تنبذ مفوم خلاقية الطبيعة،فما عليك إلاّ أن تسند إلى كل شيء في الوجود، بل حتى إلى كل ذرة، قوة هائلة لا حدود لها، وقدرة عظيمة لا منتهى لها، وحكمة بالغة لا حد لحدودها، ومهارة فائقة بلا نهاية. بل عليك ان تسند الى كل شئ بصراً نافذاً إلى كل شيء، وإدارة حازمة تحيط بكل شيء!!."(الكلمات ٧٨٠)

إنه كلام بليغ يستحق التدبر، لأنك إن وقفت على أي شجرة أو أي نبتة وتأملت في تكوينها ومراحل نموها وما تنتجه من ثمرات أيقنت أنها لم تصنع نفسها وأنها لا تملك من العقل والتفكير، والقدرة والتدبير الذاتي ما يجعلها تصنع أوراقها وأغصانها وساقها وجذورها، ومن بعد ذلك تنتج ثمارها في دورة

إنتاج لا تتخلف عن موسمها، ولا تضطرب في المراحل التي تمر بها، نعم، من التراب والماء تمتص الجذور المتقاربة التي تسقى من ماء واحد تمتص من المواد ما يجعل كل شجرة أو نبتة تحافظ على خصوصية شكلها وإنتاجها ولا تتخلف ولا تتفاوت.

﴿فَسُبْحَٰنَ ٱلَّذِى بِيَدِهِۦ مَلَكُوتُ كُلِّ شَىْءٍ﴾.

﴿وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ﴾

أحسن كل شيء خلقه

نمضي مع نوافذ الإيمان التي فتحها لنا الأستاذ بديع الزمان سعيد النورسي رحمه الله تعالى، ونقف مع النافذة الخامسة عشرة التي بدأها بقول الله تعالى:

"﴿ ٱلَّذِىٓ أَحۡسَنَ كُلَّ شَىۡءٍ خَلَقَهُۥ ﴾ (السجدة/٧)".

وفي نور هذه الآية ينظر الأستاذ بديع الزمان، رحمه الله، إلى الكائنات ليرى تجليات إحسان الخلق الإلهي في كل شيء.

قال رحمه الله: "إن كُلَّ شيء قد فصّل على قدٍّ قامة ماهيته، تفصيلاً متقناً، ووُزنَ بميزان دقيق كامل الوزن عليها، ونُظم تنظيماً تاماً فيها، ونُسق تنسيقاً بارعاً، وصُنع بمهارة، وأُلبس أجمل صورة، وألطف ثوب، وأبهى طراز، من أقرب طريق إليه، وأسهل شكل يُعينه على أداء مهمته، ووُهب له وجود ينضح حكمةً، لا عبث فيه ولا اسراف. فخذ مثلاً، الطيور؛ لباسها الريش الناعم اللطيف. فهل يمكن أن تلبس ثوباً أنسب لها ولحكمة خلقها منه.. أيّ لطف وجمال حين تنظّفه! وأي يسر وسهولة حين تحركه وتستخدمه في شتى أمورها الحياتية

والمعاشية!.وهكذا، كل ما في الوجود شاهد ناطق - كهذا المثال - على الخالق الحكيم. وكل منه إشارة واضحة إلى قدير عليم مطلق القدرة والعلم."(الكلمات ٧٨١)

نحن في هذه النافذة أمام قوانين ربانية في الخلق تتجلى في كل شيء من حولنا، في التناسق بين ظاهر الكائن المخلوق وما خلق له من وظيفة يؤديها، قوانين تتجلى في التوازن والتنظيم والتناسق ومهارة الصنع وجمال الصورة ولطف الثوب وبهاء النموذج، وإذا كان الأستاذ النورسي، رحمه الله، قد أعطانا مثلا بارزا على هذه القوانين التي أشار إليها من الطيور فإننا في نور ذلك نستطيع أن نتفكر في المخلوقات الأخرى لنطبق عليها ما انطبق على الطيور، ولندرك إحسان خلق الله تعالى للأشياء، وانظر من حولك للحيوانات تجد أن منها ما اكتسى بالصوف، ومنها ما اكتسى بالشعر أو الوبر، ، ومنها ما يطول كساؤه في كل سنة ليجزه الإنسان وينتفع به في شؤون حياته، كما يحدث مع صوف الخراف، وشعر الماعز، ومنها ما لا ينمو نموا ظاهرا، كما هو الحال مع الخيل، وكل كائن من هذه الكائنات يؤدي ما خلق له من دور، ويقوم بما أسند له من وظيفة على أكمل وجه ليتحقق الهدف من وجوده لا للإنسان، سيد الأرض وحده بل

للكائنات الأخرى التي لها وجه انتفاع بوجود هذا الكائن، وهذا باب تفكر واسع، ونافذة نورساطع، نطل منها على آيات ربنا في جانب من جوانب الخلق، يظهر بديع الصنع، وروعة الخلق.

ونمضي مع الأستاذ بديع الزمان النورسي، رحمه الله، لنفتح معه النافذة السادسة عشرة من نوافذ الإيمان لنطل منها على جانب من تجليات أسماء الله الحسنى في هذا الوجود، ونجده يلفت نظرنا إلى تجدد الكائنات على هذه الأرض في انتظام واطراد في مواسم لا تتخلف في فصول متتابعة كل فصل منها يسلم الأمانة إلى الفصل الذي يليه من فصول السنة لتتوافر للكائنات أسباب الحياة، هذا الأمر ليس عشوائيا، ولا يقوم على الصدفة بل هو دليل على الرب الرحيم والخالق الحكيم، والمدبر العظيم.

يقول الأستاذ النورسي رحمه الله: "إن ما يشاهد على سطح الأرض من انتظام واطراد في خلق المخلوقات، وتدبير أمورها، وتجديدها باستمرار في كل موسم، يدل بالبداهة على حكمة عامة تغمر الموجودات. هذه الحكمة العامة تدل بالضرورة على حكيم مطلق الحكمة، اذ لا صفة دون موصوف."(الكلمات ٧٨١)

ثم يلفت الأستاذ النورسي، رحمه الله تعالى، أنظارنا إلى جوانب أخرى من هذه الظاهرة ومعها، جوانب تتعلق بالجمال المتجلي في هذه الكائنات المتجددة في المواسم، ولا يقتصر العطاء الرباني على ضرورات بقاء الحياة بل هناك من أنواع الرزق ما يدل على اللطف والرفق والإحسان لتستمتع الكائنات، وسيدها الإنسان بألوان العطاء الرباني، مما يدلنا على خالق كريم ورب رزاق رحمن رحيم ولنستمع إلى الأستاذ النورسي، رحمه الله، يكشف لنا بعض أنوار هذا المشهد فيقول:

"ثم إن أنواع الزينة البديعة التي تؤطر ستار الحكمة العامة الذي يتلفع الوجود به، تدل بالبداهة على عناية فائقة عامة، وهذه العناية تدل بالضرورة على خالق كريم.إن أنواع اللطف والكرم، وألوان الرفق والإحسان المرسومة على ستار العناية الذي يغطي الوجود كله، تدل بالبداهة على رحمة واسعة، وهذه الرحمة الواسعة تدل بالضرورة على "الرحمن الرحيم".ثم إن أنواع الرزق، وأنماط الإعاشة، المزهرة على أغصان الرحمة التي تظلل بأفنانها كُلَّ شيء، والمعدّة للأحياء المحتاجة إلى الرزق، وإعاشتها إعاشة تلائمها تماماً، يدل بالبداهة على رزاقية ذات تربية ورعاية.. وربوبية ذات رأفة ورحمة..

وهـذه التربيـة والإدارة تـدلان بالضـرورة علـى رزاّق كـريم". (الكلمات ٧٨١)

والـتأمل في الكائنـات مـن حولنـا ومـا يتجلـى فيهـا مـن آثـار ربوبية الله تعالى عليها الذي خلقها ودبر شؤونها وأعد لها كل ما يلزم حياتها من أشياء تعينها على القيام بوظيفتها مـن ألـوان الـنعم الظاهرة واالباطنة تكشف لنا بعض صفات الله تعالى التي تتجلى في ذلـك كلـه لنـرى آثـار الخلـق، ودلائـل الحكمـة وعلامـات الرحمـة، وكـل ذلـك يشـهد بوحدانيـة الله تعـالى شـهادة قاطعـة يدركها من جلا عن حواسه غبش الغفلة، وضباب الرتابة، وعتمة الانشغال بالنعم عن المنعم سبحانه. يقـول الأسـتاذ النورسـي رحمـه الله تعالى في جلاء هذه المعاني:

"نعم، ما على الأرض مـن مخلوقـات تُربّـى بحكمـة كاملـة، وتُزيَّن بعنايـة كاملـة، وتُسبغ عليهـا الـنعم برحمـة كاملـة، وتُمـدُّ بوسائل عيشها برأفة كاملة، فكُلٌّ منها لسـان نـاطق ومشـير إلى الله الحكيم، الكريم، الرحيم، الرزّاق.وكُلٌّ منهـا أيضـاً يشـير إلى وحدانيته. كما أنَّ ما على الأرض من حكمة ظاهـرة يُستَشَف منهـا القصـد والإرادة.. ومـا عليهـا مـن عنايـة عامـة تتضـمن تلـك الحكمة..وما عليها من رحمة تسـع الوجـود والـتي تتضـمن العنايـة

والحكمة..

وما عليها من رزق شامل عام للأحياء وإعاشة كريمة لطيفة، والتي تتضمن الرحمة والعناية والحكمة... فكل من هذه المظاهر وبمجموعها تدل دلالة عظيمة جداً على الحكيم، الكريم، الرحيم، الرزاق، وتدل على وجوب وجوده سبحانه وعلى وحدانيته وكمال ربوبيته.اذ إن ما في الحكمة من عناية، وما في العناية من رحمة، وما في الرحمة من إعاشة وإرزاق دلالات قاطعة وبمقياس واسع جداً على الواجب الوجود بمثل دلالة الألوان السبعة على ضوء الشمس الذي يملأ النهار نوراً."(الكلمات ٧٨٢)

ويختم الأستاذ النورسي رحمه الله تعالى هذه النافذة من نوافذ الإيمان بخطاب للإنسان الغافل الذي لم يبصر حقائق الوجود إبصارا يدله على خالقه، بل اكتفى بظواهر الأمور، درس القوانين الطبيعية، وعرف آثارها، لكنه بقي محجوبا بها عن خالقه وخالقها، اكتفى بالمشاهد المحسوس، ولم يمد عقله من عالم الشهادة إلى عالم الغيب، ولم يربط الظواهر بقوانين الحكمة التي تتجلى في الترابط والتناسق والتتابع والاطراد ليصل في تفكره إلى الحقيقة التي تقول: لا يمكن لهذه الأشياء

والقوانين أن تكون هي خالقة نفسها ، ولا يمكن أن تكون من غير خالق، كما أنه لا يمكن أن يكون لها أكثر من خالق، إذن، علينا أن نؤمن بأن الله الواحد الأحد هو الخالق والرازق والمدبر والحكيم والرزاق والكريم، كما أخبر بذلك عبر تاريخ البشرية من بعثهم رسلا إلى الناس ليعرفوا البشر بخالقهم وخالق الكون الذي يعيشون فيه ويكشف لهم عن غاية وجودهم ومصيرهم بعد الرحيل عن هذه الأرض، يقول الأستاذالنورسي، رحمه الله، في ختام هذه النافذة مخاطبا الغافل عن ربه وآياته المبثوثة في الوجود كله:

"فيا أيها الغافل الحائر الجاحد!كيف تفسر هذه التربية المكللة بالحكمة البالغة، والكرم الشامل، والرحمة الواسعة، والرزق الوفير، وبِمَ توضح هذه المظاهر المعجزة؟

أفيمكن تفسيرها بالمصادفة العشواء؟ أم يمكن توضيحها بالقوة الميتة موات قلبك؟ أم يمكن ذلك بالطبيعة الصمّاء صمَم عقلك؟ أم بالأسباب العاجزة الجامدة الجاهلة مثلك؟ أم تريد ان ترتكب خطأً جسيماً - ما بعده خطأ - وهو إطلاقك صفات البارئ الجليل المنزّه المتعال والقدير العليم السميع البصير، على "الطبيعة" العاجزة الجاهلة الصمّاء العمياء؟

فبـأي قـوة يمكنـك أن تطفـئ سـراج هـذه الحقيقـة السـاطعة سـطوع الشـمس؟ وتحـت أي سـتار مـن أسـتار الغفلـة يمكنـك أن تسترها؟ "(الكلمات٧٨٢)

آيات للمؤمنين

يبدأ الأستاذ سعيد النورسي النافذة السابعة عشرة من نوافذ الإيمان بقوله تعالى:

﴿ إِنَّ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ لَأَيَٰتٍ لِّلْمُؤْمِنِينَ ﴾ (الجاثية/٣).

وهي آية تفتح لنا آفاق السماوات والأرض لنستطلع ما فيها من الآيات الدالة على ربنا سبحانه وأسمائه الحسنى، ويلتفت الأستاذ النورسي رحمه الله تعالى إلى ما في الوجود من السخاء في العطاء الرباني الذي لا تشوبه فوضى بل هو في غاية الانتظام، وإلى السرعة في خلق الموجودات، التي لا يخالطها تشويه بل هي في غاية الضبط والإتقان، وإلى الوفرة في المخلوقات التي لا يعكرها ابتذال أو قبح بل هي في غاية الإبداع والجمال، وإلى تشابك الكائنات في مكانها وتجاورها ولكن لكل منها شخصيته وخصائصه، ويشير إلى تباعد مصادر إنتاج المخلوقات في الزمان والمكان، ولكنها تأتي متشابهة غير مختلفة في مكانين مختلفين، أو موسمين متباعدين، وهذا يدل على أن كل ما في الوجود من نبات وأشجار وحيوان وطير وأسماك ميدان فسيح للتفكر في آيات الله ودلائل قدرته مما يشهد بوحدانية الله تعالى

ويدل على أسمائه الحسنى، ولنستمع إلى الأستاذ سعيد النورسي، رحمه الله، يحدثنا عن هذه الآية وما يتجلى فيها من الآيات:

"إذا تأملنا وجه الأرض المبسوط أمامنا نَرى: أن سخاءً مطلقاً يتجلى في إيجاد الأشياء. فبينما يقتضي السخاء أن تكون الأشياء في فوضى وعدم انتظام، إذا بنا نشاهدها في غاية الانسجام ومنتهى الانتظام. شاهدْ جميع النباتات التي تزيّن وجه الأرض تَرَ هذه الحقيقة .ونرى أيضاً سرعة مطلقة تتبين في إيجاد الأشياء. فبينما تقتضي السرعة أن تكون الأشياء مشوهة الصورة، مختلة المادة، ومضطربة الميزان، وينقصها الإتقان، إذا بنا نشاهدها في غاية التقدير والضبط والسبك، ومنتهى الدقة والموازنة. لاحظ جميع الأثمار التي تجمل وجه الأرض حيث تبدو هذه الحقيقة فيها على أحسن وجه.

ونرى أيضاً وفرةً وغزارةً مطلقة في إيجاد الأشياء، فبينما تقتضي الكثرة أن تكون الأشياء تافهة ومبتذلة وربما قبيحة، إذا بنا نشاهدها في إتقان رائع، وصنعة بديعة وجمال أخّاذ. انظر وتأمل في جميع الأزهار التي ترصّع وجه الأرض. ألا يبدو ذلك فيها تماماً!." (الكلمات ٧٨٢ -٧٨٣)

وإذا نظرنا من حولنا في الجبال والسهول والوهاد أيام الربيع

تجلت لنا دلائل هذا القول في هذه الوفرة من النبات الذي يغطي وجه الأرض، لا بالخضرة فحسب بل في هذه الأزهار التي تزين وجه الأرض وتكشف عن إبداع رائع.

ويتابع الأستاذ النورسي حديثه فيقول: "ونرى أيضاً سهولة مطلقة تبدو في إيجاد الأشياء. فبينما تقتضي السهولة أن تكون الأشياء بسيطة ومفتقرة إلى الإتقان والمهارة. إذا بنا نشاهدها في كمال الإبداع وروعة المهارة. شاهد البذور وأمعن النظر في النوى، تلك العلب الدقيقة الحاملة في مادّة تركيبها فهارس أجهزة الشجر وخرائط أجسام النبات."(الكلمات ٧٨٣)

كم من الحبوب نرى، وكم منها نبذرها في الأرض،ولكن كم منا من يقف متفكرا متدبرا فيما سماه الأستاذ النورسي،رحمه الله، العلب الدقيقة التي فيها فهارس الشجر والنبات، ففي كل بذرة تكمن شجرة أو نبتة وبذور لا حصر لها ويتجلى ذلك حين نزرع شجرة فنرى فيها جذورا وأغصانا وأوراقا، ونرى من بعد ثمرات لا حصر لها.

ويمضي الأستاذ النورسي فيقول: "ونرى أيضاً بُعداً مطلقاً يفصُل بين أزمنة وأمكنة إيجاد الأشياء، فبينما تقتضي هذه الأبعاد المهولة أن تأتي الأشياء مختلفة ومتباينة، إذا بنا نشاهدها

في اتفاق تام في الصفات والخواص. شاهد أنواع الحبوب المزروعة في أقطار الأرض كافة رغم البعد الزماني والمكاني الذي يفصل بينها."(الكلمات٧٨٣)

ألا يستحق هذا التشابه وقفة تفكر تظهر بديع صنع الخالق وتدل على وحدانيته، وليس ذلك فحسب فآيات الله تعالى لا تنتهي إن تابعنا التدبر والبحث.

يقول الأستاذ النورسي رحمه الله تعالى: "ونرى أيضاً اختلاطاً مطلقاً، وتشابكاً متيناً في إيجاد الأشياء. فبينما يقتضي هذا الاختلاط تداخل المواد بعضها في البعض الآخر وتشابكها، إذا بنا نشاهدها في تمايز كامل، وتخصص منتظم. شاهد البذور المنثورة المدفونة تحت التراب، وأمعن النظر في تمايزها أثناء نموها وتسنبلها، رغم تشابه تراكيبها. وتأمل في المواد المختلفة الداخلة في بنية الأشجار، وتحوّلها إلى مختلف الأشكال من الأوراق الرقيقة، والأزهار الزاهية، والثمار اللطيفة. وتأمل في أنواع الطعام والأغذية المختلفة الداخلة في المعدة، وتمايز بعضها عن البعض، ودخول كل منها إلى العضو الذي يناسبها بل إلى الحجيرة التي تلائمها بتمايز واضح.. شاهد آثار القدرة المطلقة، من خلال الحكمة المطلقة."(الكلمات ٧٨٣)

إنها العناية الإلهية التي تجعل لكل شجرة أو نبتة شخصيتها مع أن النباتات تتجاور في البساتين والحقول والسهول، هذا النبات يلبي الحاجات المختلفة للكائنات ومنها الإنسان الذي يأكل أنواعا شتى من الطعام، وتختلط الأطعمة في المعدة والأمعاء اختلاطا كبيرا، ليأخذ الجسم منها ما يلزم كل عضو من أعضاء الجسد من المواد التي تغذيه وتبقيه قائما بالوظيفة المطلوبة منه. ويتابع الأستاذ رحمه الله:

"ونرى أيضاً وفرة متناهية في الأشياء، وكثرة كاثرة من أنواعها وأشكالها. فبينما تقتضي هذه الوفرة أن تكون الأشياء رخيصة بسيطة، اذا بنا نشاهدها في غاية النفاسة ومنتهى الجودة. شاهد الآثار البديعة المعدَّة لمائدة الأرض، وأمعن النظر في ثمرة واحدة، ولتكن ثمرة التوت مثلاً. ألا تمثل هذه الثمرة نموذجاً رائعاً لحلوى مصنوعة بيد القدرة الإلهية؟ شاهد كمال الرحمة، من ثنايا كمال الإبداع.

وهكذا نشاهد على وجه الأرض جميعه؛ جودة ونفاسة في المصنوعات رغم وفرتها غير المتناهية.. ونرى ضمن هذه الوفرة تميزاً للموجودات رغم اختلاطها وتشابكها.. ونجد في هذا الاختلاط والتشابك اتفاقاً وتشابهاً في الموجودات رغم البعد فيما

بينها.. ونبصر من ثنايا هذا التوافق جمالاً رائعاً في الموجودات ورعاية بالغة بها رغم السهولة المتناهية في إيجادها. ونلمح ضمن هذه الرعاية التامة تقديراً دقيقاً بلا اسراف وموازنة حسَّاسة رغم السرعة في إيجادها.. ونلاحظ ضمن هذا التقدير والموازنة وعدم الإسراف إبداعاً في الصنعة وروعة فيها رغم كثرتها المتناهية. ونشاهد ضمن هذه الروعة في الصنعة انتظاماً بديعاً رغم السخاء المطلق في إيجادها..

فإذا تأملنا في هذه الأمور كلها، نراها تدل دلالة واضحة أوضح من دلالة النهار على الضياء، وأسطع من دلالة الضياء على الشمس؛ على وجوب وجود قدير ذي جلال، وحكيم ذي كمال، ورحيم ذي جمال، وتشهد على وحدانيته، وأحديته وكمال قدرته وجمال ربوبيته، وتبين بجلاء سراً من أسرار الآية الكريمة:

﴿لَهُ ٱلۡأَسۡمَآءُ ٱلۡحُسۡنَىٰ﴾ ."(الكلمات ٨٧٣ -٧٨٤)

ويختم الأستاذ النورسي هذه النافذة بخطاب للمنكر المعاند الذي ينسب الوجود إلى الطبيعة أو الصدفة أو إلى أي شيء سوى الله الخالق الحكيم القدير، فيقول: "وبعد؛ فيا أيها الغافل العنيد، ويا أيها الجاهل المسكين!

بماذا تفسر هذه الحقيقة العظمى التي تراها رأي العين؟

وبمـاذا توضـح هـذه الأوضـاع الخارقـة المعروضـة أمامـك؟ والى مَـن تسند أمر هذه المصنوعات البديعة العجيبة؟ وبأي ستار مـن سـتائر الغفلة يمكنك أن تستر هذه النافذة الواسعة سعة الأرض نفسها؟

أين المصادفة التي تعتقد بها والطبيعة التي تعتمد عليها وهـي بـلا شـعور؟ بـل أيـن أوهـام الضـلالة الـتي تسـتند اليهـا ، وتلازمهـا وترافقهـا وتصـادقها؟! أيـن جميعهـا أمـام هـذه الحقـائق المحـيرة والأحوال البديعة المذهلة؟

أليس محالاً في مائة محال أن تدخل المصـادفة في أمثـال هـذه الأمور؟ أوَليس محالاً في ألف محال أن يسند واحد من هذه الأمـور الى الطبيعة ناهيك عن جميعها؟!

أم انك تعتقد في الطبيعة الجامدة العاجزة إمكان امتلاكها لمكائن معنوية في كل شيء؟ وبعدد الأشياء كلها؟ فيا للضلالة!"

وقفة مع تسبيح الكائنات

نطل على نافذة جديدة من نوافذ الإيمان، يفتحها لنا الأستاذ بديع الزمان سعيد النورسي رحمه الله وهي النافذة التاسعة عشرة، وقد بدأها بقول الله تعالى:

﴿تُسَبِّحُ لَهُ ٱلسَّمَٰوَٰتُ ٱلسَّبۡعُ وَٱلۡأَرۡضُ وَمَن فِيهِنَّۚ وَإِن مِّن شَيۡءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمۡدِهِۦ﴾

ويقف بنا الأستاذ النورسي رحمه الله على جوانب من تسبيح الأشياء لله رب العالمين ولكنه تسبيح ليس بألسنة كألسنتنا ولا صوت كأصواتنا بل هي كلمات تتجلى لنا في جو السماء: في الشموس والأقمار والنجوم، كما تتجلى في الظواهر الطبيعية المتجددة في الرعد والبرق والمطر، فهذه الآيات هي كلمات لله وهي ناطقة بحمده وتسبيحه. يقول الأستاذ النورسي رحمه الله:

"نعم، مثلما أودع الصانع الجليل حكماً لا تُعَدُّ، ومعاني ساميةً لا تحصى في الأجرام السماوية، فزيَّن تلك السماوات بكلمات الشموس والأقمار والنجوم لتعبّر عن جلاله وجماله سبحانه.. كذلك ركّب جلَّ وعلا في موجودات جو السماء

حِكَماً عالية، وعلّق عليها معاني سامية، ومقاصد عظمى، وأنطق جو السماء بكلمات الرعود والبروق وقطرات الأمطار ليُعْلَمَ بها، ويُعَرّفَ عن طريقها: كمال حكمته، وجمال رحمته".

وكما تتجلى الآيات الناطقة بحمد الله وتسبيحه في جو السماء تتجلى على الأرض في آفاق النباتات والحيوانات، ولكن إدراكها والاستماع إليها يحتاج إلى تفكر وتدبر، وإنصات بالعقل الواعي والقلب الصافي النقي، يقول الأستاذ النورسي يرحمه الله: "ومثلماجعل سبحانه وتعالى كرة الأرض تتكلم بكلماتٍ ذات مغزى، وأنطَقَها بما بثَّ فيها من الحيوانات والنباتات التي هي كلمات بليغة، مبيّناً بذلك كمال صنعته للوجود.. كذلك جعل النباتات والأشجار نفسها تنطق بلسان أوراقها وأزهارها وثمارها، معلنةً كمال صنعته سبحانه، وجمال رحمته جلَّ جلاله.. وجعل الزهرة ايضاً، والثمرة كذلك وهي كلمة واحدة من تلك الكلمات.. جعلها البارئ المصور تتكلم بلسان بُذيراتها الدقيقة فأشار بها سبحانه إلى: دقائق صنعته، وكمال ربوبيته، لمن يُحسن الرؤية من ذوي الاحساس والشعور.

فدونك إنْ شئتَ الاستماع إلى ما لا يحد من كلمات التسبيح والأذكار في الكون."(الكلمات ٧٨٦)

ويقرب إلينا الأستاذ النورسي رحمه الله تسبيح زهرة وسنبلة ليكشف لنا من خلال هذا التسبيح تجليات آيات الله في ما هو قريب منا ماثل بين أيدينا فيقول: "وسنستمع الآن إلى ذلك النمط من الكلام متمثلاً في كلام زهرة واحدة من بين أزهار العالم، وسنصغي إلى أفادة سنبلة واحدة من بين سنابل الأرض، لنزداد يقيناً كيف أن هذا كله يشهد شهادة صادقة على مصداقية التوحيد.

نعم، إن كل نبات وكل شجر، دليل واضح على صانعه، وشاهد صدق على وحدانية خالقه بمختلف الألسنة، بحيث إن تلك الشهادة تجعل المدقق المتمعن فيها في حيرة وذهول، فيقول: يا سبحان الله.. ما أجمل شهادة هذا على أحقية التوحيد!

نعم، إنه واضح جلي كوضوح النبات نفسه، وجميل كذلك كجمال النبات نفسه، تلك التسبيحات التي يهمس بها كل نبات في إشراق تبسمه، عند تفتح زهره، ونضج ثمره، وتسنبل سنبله، لأنه بالثغر الباسم لكل زهرة، وباللسان الدقيق للسنبل المنتظم، وبكلمات البذور الموزونة، والحبوب المنسقة، يظهر (النظام) الذي يدل على (الحكمة)..

وهـذا النظـام كمـا هـو مشـاهد، في ثنايـا (ميـزان) دقيـق حسّاس، يدل على (العِلم) ويبينه ويبرزه، وذلك (الميزان) هو ضمن (الصنعة الدقيقة) التي تدل على (المهارة الفائقة). وتلك الصنعة الدقيقة والنقوش البديعة هي الأخرى ضمن الزينة الرائعة التي تبين (اللطف والكرم). وتلك الزينة البهيجة هي بدورها معبّقة بالروائح الطيبة الفواحة، والعطور الزكية اللطيفة التي تظهر (الرحمة والإحسان).

فتلك الأوضاع والحالات، التي لها معانٍ عميقة متداخلة، ومكتنفة بعضها ببعض، لسان شهادة عظمى للتوحيد، بحيث تعرِّف الصانع ذا الجلال بأسمائه المقدسة الحسنى، وتصفه باوصافه الجليلة السامية، وتشرح وتفسر أنوار تجليات أسمائه الحسنى، وتعبّر عن تودّده وتحبّبه سبحانه وتعالى." (الكلمات٧٨٧)

هذا الاستماع من خلال هذه النافذة يفتح لنا نوافذ للاستماع إلى الأزهار التي تملأ الوجود، والسنابل التي تملأ الحقول، بل ويفتح لنا النوافذ إلى تسبيحات كل شيء، وشرط تحقق هذا: شق حجاب الغفلة، وفتح أدوات الحس لتسمع ما وراء الظاهر، وتدرك آيات الله التي لا حصر لها وليدخل الإنسان في حلقة

الذكر الكبيرة التي تعمر الكون كله. يقول الأستاذ النورسي رحمه الله:

"فلئن استمعتَ إلى شهادة كهذه من زهرة واحدة فقط، وتمكنت من الأصغاء إلى الشهادة العظمى الصادرة من جميع الأزهار في جميع البساتين الربانية على سطح الأرض،واستمعت إلى ذلك الإعلان المدوي الهائل الذي تعلنه تلك الازهار في وجوب وجوده سبحانه ووحدانيته، فهل تبقى لديك ثمة غفلة! أو أية شبهة؟ وإنْ بقيتْ لديك غفلة،فهل يمكن أن يطلق عليك بأنك إنسان ذو شعور سامٍ متجاوب مع مشاعر الكون وأحاسيسه؟!. (الكلمات٧٨٧)

وينتقل بنا الأستاذ النورسي رحمه الله، من تسبيح زهرة وسنبلة إلى تسبيح شجرة لتكون نموذجا لتسبيح الأشجار كلها: "فتعالَ لنتأمل شجرة.. نحن أمام نشوء الأوراق ونموها في الربيع بانتظام ودقة متناهية، وأمام تفتح الأزهار وخروجها من اكمامها بشكل موزون، وأمام نمو الثمار بحكمة ورحمة..

فهلاّ أمعنت النظر في منظر ملاعبة النسيم للأوراق برقة وبراءة كبراءة الطفولة النقية الرقيقة.

وشاهد من فم الشجرة، كيف تنطق هذه الألسن وتفصح عن حالها؛لسان الأوراق المخضرة بيد الكرم.. ولسان الأزهار المبتسمة بنشوة اللطف.. ولسان الثمار الفرحة بتجلي الرحمة.. كُلٌّ منها يعبّر عن ذلك (الميزان) الدقيق العادل الذي هو ضمن (النظام) البديع المحكم، وفي هذا الميزان الدقيق الذي يدل على (العدل) نقوشُ صنعةٍ دقيقة بديعة، وزينة فائقة تضم مذاقات متنوعة، وروائح مختلفة طيبة لطيفة، تدل على الرحمة والاحسان، وفي تلك المذاقات اللطيفة بذور ونوى هي بحد ذاتها معجزة من معجزات القدرة الإلهية، ألا يدل ذلك بوضوح، ويظهر بجلاء وجوب وجود خالق كريم ورحيم، محسن، منعم، مُجمِّل، مُفضِّلٍ، واحد، أحد، ويشهد كذلك على جمال رحمته سبحانه وكمال ربوبيته؟"(الكلمات٧٨٨)

ويتخذ الأستاذ النورسي رحمه الله من هذا التسبيح للشجرة نافذة إلى تسبيح الكون كله فيقول: "فإن استطعت أن تسمع هذا من لسان حال جميع الأشجار على سطح الأرض معاً، فستفهم، بل سترى؛ كم من الجواهر الجميلة النفيسة الرائعة في خزينة الآية الكريمة:

﴿يُسَبِّحُ لَهُۥ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۖ﴾ (الحشر/٢٤).

"(الكلمات٧٨٨)

ويوجه الخطاب في نهاية هذه النافذة إلى الغارق في عالم المادة الغافل عن حقيقة الوجود ناصحا له كاشفا للغشاوة عن بصره وبصيرته فيقول: "فيا أيها الغافل المسكين، ويا مَنْ يظن نفسَه هملاً دون حساب، ويا مَنْ يغرق في نكران الجميل والكفران!.

إن الكريم ذا الجمال يعرّف نفسه ويحبّبُها إليك بهذا الحشد من الألسنة التي لا تعد ولا تحصى، وإن أردت أن تصرف نفسك عن ذلك التعريف، فما عليك الاّ أن تكمم جميع هذه الأفواه، وتسكت تلك الألسنة كافة. وأنّى لك هذا!!

فما دام إسكات تلك الألسنة الناطقة بالتوحيد غير ممكن، فما عليك إلاّ الإصغاء والإنصات اليها. وإلاّ فلن تنجو بمجرد سد الأذن بأصابع الغفلة، لأن عملك هذا لا يسكت الكون. فالكون جميعاً، والموجودات كافة ناطقة بالتوحيد. فدلائل التوحيد وأصداؤه شواهد عدل لا تنقطع ولا تنتهي أبداً. فلا بد أنها ستُدينك."(الكلمات٧٨٨)

نسأل الله تعالى أن يجعلنا من المسبحين وأن يجعلنا من المدركين لتسبيح ما حولنا من الكائنات.

من دلائل الحكمة الربانية

الكون كله في كل زاوية من زواياه، وفي كل جانب من جوانبه مليء بالآيات البينات الدالة على الله تعالى، التي تشير إلى تجليات أسمائه الحسنى وصفاته العليا، ولكن الغفلة والانشغال بتوافه الأمور، والعيش في أسر اللحظة، والوقوع في حجاب الحاجة والشهوة، كل ذلك يجعل الإنسان في غفلة عما حوله من الآيات البينات، والدلائل الواضحات التي ترسم له الطريق ليكون عبدا لله:عابدا له، مستقيما على طريقه، ولكنها الشهوات والشبهات التي تتحول إلى حجب وظلمات، وفي هذه المقالات نعيش في ظلال رسائل النور، ونسعى بالتأمل فيها إلى شق تلك الحجب وإنارة تلك الظلمات بنور الحقيقة، وضياء اليقين لنكتشف المألوفات التي هي آيات بينات وندرك ما فيها من تجليات القدرة والعلم والحكمة والجلال والجمال، وذلك ما يقودنا إليه العالم الرباني بديع الزمان سعيد النورسي رحمه الله، وها نحن نقف على النافذة العشرين التي استهلها بقوله تعالى:

﴿فَسُبْحَٰنَ ٱلَّذِى بِيَدِهِۦ مَلَكُوتُ كُلِّ شَىْءٍ﴾ (يس/ ٨٣).

وقوله سبحانه: ﴿ وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلَّا عِندَنَا خَزَآئِنُهُۥ وَمَا نُنَزِّلُهُۥٓ إِلَّا بِقَدَرٍ مَّعْلُومٍ ﴿٢١﴾ وَأَرْسَلْنَا ٱلرِّيَٰحَ لَوَٰقِحَ فَأَنزَلْنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَسْقَيْنَٰكُمُوهُ وَمَآ أَنتُمْ لَهُۥ بِخَٰزِنِينَ ﴾ (الحجر/ ٢١ – ٢٢).

ومضى بعد ذلك في جولة ممتعة في جنبات الوجود يكشف لنا عن بعض آيات ربنا سبحانه وتعالى، ومن ذلك قوله مقررا قاعدة تتجلى في المخلوقات: "كما يُشاهَدُ كمال الحكمة، وجمال الإتقان في الجزئيات والفرعيات، وفي النتائج والفوائد، فإن العناصر الكلية، والمخلوقات العظيمة التي تبدو مختلطة ومتشابكة، وتوهمُ أنها لعبة المصادفة، تتخذ أيضاً أوضاعاً تتسم بالحكمة والإتقان، رغم الاختلاط الظاهر عليها" (الكلمات٧٨٩)

ويمضي بعد ذلك في رحلة ممتعة مع الموجودات ليأتي بشواهد على هذه القاعدة العريضة فيضرب لنا أمثالا من النور والرياح والينابيع والجداول والأنهار وأنواع الأحجار والأزهار والأثمار والطيور والسحب الثقال والسماء، ويخص منها القمر فيقول: "النور أو الضوء، بدلالة وظائفه الحكيمة الأخرى إنما هو للإعلان عن مصنوعات الله سبحانه، وعرضها بإذنه أمام الأنظار،

أي أن الضوء مسخّر من لدن خالق حكيم، ليُظهر به سبحانه عجائبَ مخلوقاته، ويُعرض تحت شعاعه بدائعَ مصنوعاته، في معارض سوق العالم". (الكلمات ٧٨٩)

ولننظر إلى أهمية النور والضوء في حياتنا وفي الوجود كله، ولنتصور كل مصادر الطاقة وقد توقفت، والشمس قد غابت والنجوم انكدرت، فهل يبقى بعد ذلك إدراك لشيء في هذا الوجود؟ عندها سينمحي الوجود حين يغيب الإدراك، فما أعظم آية الضوء والنور التي بها تتجلى الآيات وتتكشف المخلوقات لمن يملكون وسائل الإدراك.

ثم يقول عن الرياح: "وانظر الآن إلى الرياح: تَرَ أنها تجري لإنجاز وظائف مهمة وخدمات جليلة، يشهد بهذا ما يُحَمَّلُ على وظائفها الحكيمة من منافع كريمة. فموجات الأعاصير إذن، هي تصريفٌ وتسخيرٌ من لدن الخالق الحكيم. وما يُشَاهَدُ من عصفها وشدّةً هبوبها، فلإسراعها في تنفيذ الأوامر الربانية وامتثالها لُحُكمها".. (الكلمات٧٨٩)

فالرياح آية أخرى ولنسمها آية حركية بها يحدث التغيير في البيئات، وتحمل من مكان إلى آخر حبوب اللقاح، وتحمل أطنانا من الرمال من قارة إلى أخرى، بل تجري بها السحب الثقال، وفي

زمن الأشرعة كانت تسوق السفن في البحار، فانظر أي آية لله تعالى في الرياح التي تجري حينا رخاء، وتهب حينا آخر عاصفة قد تحمل في هبوبها بعض الدمار والخراب وهي في ذلك كله مسخرة مسيرة من رب حكيم وقادر عليم.

وينتقل بنا الأستاذ النورسي، رحمه الله، إلى جانب آخر من آيات الله البينات التي قد نمر بها غافلين وتشغلنا حاجتنا إليها عما فيها من الإعجاز ودلائل القدرة الربانية وهي مصادر المياه في الأرض من ينابيع وجداول وأنهار فيقول: "وانظر الآن إلى الينابيع والجداول والأنهار، وتأمل في تفجرها من الأرض أو الجبال، تجد أنه لا مصادفة فيها ولا عبث قط. إذ تترتب عليها الفوائد والمصالح التي هي آثار رحمة إلهية واضحة، أما النتائج الحاصلة منها فهي موزونة محسوبة، وكذلك ادخارها وخزنها في الجبال إنما يجري ضمن حساب دقيق،ووفق حاجات الأحياء، ومن بعد ذلك تفجيرها وإرسالها بميزان هو الغاية في الحكمة.. كل ذلك دلالات وشواهد ناطقة أن ذلك التسخير والادخار إنما يتم من لدن ربّ حكيم.. وما نراه من شدة فورانها وتفجرها من الأرض إنما هو تَوقُها العظيم لامتثال الأوامر الربانية حال صدورها."
(الكلمات٧٨٩ -٧٩٠)

وتأمل هذا التصوير البديع لحركة الينابع والأنهار وتدفقها ب "الشوق العظيم إلى تنفيذ أوامر الله تعالى "إنك في ظلال رسائل النور مع كون حي ناطق مسبح عاقل تتماوج دفقات الشعور والمحبة بينك وبينه.

وكما تتجلى آيات الله تعالى وقدرته وحكمته التي تنفي العبث عن الوجود في الكائنات المتحركة من رياح وأنهار فإنها تتجلى كذلك في الجوامد من المخلوقات ومنها الأحجار بأنواعها وأشكالها وما يتجلى في الكريم منها من بدائع الصنع وجمال الخلق والتشكيل، يقول الأستاذ النورسي رحمه الله: "وانظر الآن إلى أنواع الأحجار، وأشكال الصخور، ودقائق الجواهر، وصفات المعادن، تأمل في تزييناتها ومزاياها التي تترتب عليها منافع شتَّى، تجد أن ما يتعلق بها من فوائد حكيمة، ومن انسجام تام بين نتائجها التي تصير إليها، ومقتضيات الحياة، ومن ثمة ملاءمتها لمتطلبات الإنسان، وقضاؤها لحاجاته وحاجات أخرى للأحياء.. كل ذلك دلالات على أن ذلك التزيين والتنظيم والتدبير والتصوير، إنما هو من لدن رب حكيم."(الكلمات ٧٩٠)

كم في الأحجار من آيات لله تعالى، وأخص الأحجار الكريمة التي تتجلى فيها آيات الجمال في الألوان والخصائص

وفي الاستعمال، انظر إليها في الرخام والمرمر، وفي العقيق والفيروز وفي ما لا يحصى من الأنواع وسبح بحمد ربك الخلاق العليم.

وينقلنا الأستاذ النورسي رحمه الله من عالم الأحجار إلى عالم الأزهار والثمار، وانظر في موسم الشتاء الذي يسبق الربيع كيف تكسى الأغصان العارية بأنواع الزهر الذي يملأ النفس بهجة والعيون جمالا وينطق الألسن بحمد الله وتسبيحه، يقول الأستاذ النورسي رحمه الله:

"وأنظر الآن إلى الأزهار والأثمار، تجد أن بشْرَ وجوهها، وحلاوة مطعوماتها، وجمالها الأخاذ، ونقوشها البديعة،وشذى عطرها الطيب، كلها بمثابة دعاة وأدلاّء إلى ضيافة الرب الكريم، والمنعم الرحيم. وهي رسائل تعريف به بين يدي موائده المنصوبة على الأرض كافّة، فكل لون من الألوان المختلفة، وكل رائحة من الروائح المتنوعة، وكل طعم من الطعوم المتباينة، يدل على ذلك الخالق الكريم، ويعرّف ذلك المنعم الرحيم بلسانه الخاص."(الكلمات ٧٩٠)

ومن الأزهار والثمار التي تمتع الأبصار وتنفع الناس بأشكال شتى ينقلنا الأستاذ النورسي رحمه الله في رحلة ممتعة

في آيات الله تعالى إلى عالم السمع مع عالم البصر لننظر في الأطيار وأشكالها وإبداع خلقها ونصغي السمع إلى جميل تغريدها وتسبيحها لله تعالى، يقول: "وانظر الآن إلى الطيور.. تجد أن هديلها وتغريدها وزقزقتها، ليس إلاّ من إنطاق خالقٍ حكيم.. فمناجاة بعضها بعضاً، وما تسكبه في لحونها من أشجان لَمّا يأخذ بالألباب."(الكلمات٧٩٠)

وينتقل بنا إلى جو السماء لنحلق مع السحاب المسخر بين السماء والأرض وما يصاحبه من برق ورعد فيصور لنا المشهد الجميل المهيب بقوله: "وانظر الآن إلى السحب الثقال، تجد أن صوت أهازيج الأمطار المنسكبة منها، وجلجلة رعود السماء ليس عبثاً قط، إذ إن إحداث تلك الأصوات العجيبة في فضاء واسع، وإنزال قطرات باعثة على الحياة، وعصرها من السحب الثقال، وإرضاع الأحياء بها، وإغاثة المتلهفين عليها، تبين بوضوح أن تلك الأهازيج والجلجلة تحمل من الحِكَم البليغة و المغزى العميق، حتى لكأنّ تلك القطرات تهتف بأمر الرب الكريم بأولئك العطاش المستغيثين قائلة: (بشراكم... ها نحن مقبلون إليكم من رب رحيم)."(الكلمات ٧٩٠)

ويمضي بنا الأستاذ رحمه الله في جو السماء لنرقى إلى

القمر وما يتجلى فيه من آيات الله تعالى البديعة فيقول: "وانظر الآن إلى السماء، وتمعن في القمر وحده -من بين أجرام السماء التي لا حصر لها -تجد أن حركاتها جميعاً ومن ضمنها القمر منسقة أجمل تنسيق وأحكمه، ومقدّرة أعظم تقدير بيد قدير حكيم، إذ تتعلق عليها حِكَمٌ غزيرة، وثيقة الصلة بالأرض. وحيث إننا قد فصلنا هذا في موضع آخر، نكتفي هنا بهذا القدر."(الكلمات ٧٩٠)

ويعقب على هذه الرحلة الممتعة في نافذة النور البهية التي امتدت من الضوء إلى القمر فيقول: "وهكذا يفتح كُلٌّ مما ذكرناه من العناصر الكلية -ابتداءً من الضوء وانتهاءً بالقمر -نافذة واسعة جداً تبين وجود الله سبحانه، وتظهر وحدانيته، وتعلن عن كمال قدرته وعظمة سلطنته، بمقياس أعظم وأكبر وبألوان شتى، وأنواع مختلفة.

فيا أيها الغافل، إن كنت تقدر على إسكات هذه الأصوات المدوية كرعود السماء، وإن كنت تستطيع أن تطفئ هذه الأضواء الساطعة. فيمكنك عندئذ أن تنسى الخالق الكريم. وإلاّ عُد إلى رشدك، وتوجّه إلى شطر عقلك وقل: سبحان من

﴿ تُسَبِّحُ لَهُ ٱلسَّمَٰوَٰتُ ٱلسَّبۡعُ وَٱلۡأَرۡضُ وَمَن فِيهِنَّۚ ﴾ (الإسراء/٤٤).

(الكلمات ٧٩١)

تأملات في آية الشمس والكواكب

كل ما حولنا يدلنا على ربنا، يقول لنا بلسان تسمعه الحواس المتدبرة والعقل المتفكر والقلب المستنير: نحن آيات الله الدالة عليه، خلقنا بقدرته، وأظهر فينا حكمته، وتجلى بجلاله وجماله، ولا يغفل عنا إلا أعمى البصر أعمى البصيرة، وقد وقف العلماء الربانيون على كثير من آيات الله تعالى يجلونها لنا ويكشفون بدائع القدرة وتجليات الحكمة فيها، وذلك ما رأيناه من العالم الرباني الأستاذ بديع الزمان النورسي، رحمه الله، الذي ما زلنا في رحلتنا معه في نوافذ النور.

ونحن معه في النافذة الحادية والعشرين في رحلة سماوية نحلق فيها مع المجموعة الشمسية وما يتجلى فيها من آيات الله سبحانه وتعالى وقد استهل الأستاذ بديع الزمان، رحمه الله، هذه النافذة بقوله تعالى:

﴿ وَٱلشَّمۡسُ تَجۡرِي لِمُسۡتَقَرّٖ لَّهَاۚ ذَٰلِكَ تَقۡدِيرُ ٱلۡعَزِيزِ ٱلۡعَلِيمِ ﴾ (يس/٣٨).

يقول بعد ذلك في تصوير بديع لهذه الرحلة التي تمضي بنا

فيها الأرض في رحلة ممتعة في هذا الكون البديع: "إنَّ الشمس التي هي سراج هذه الكائنات، إنَّما هي نافذة مضيئة ساطعة كنورها تتطلع منها المخلوقات إلى وجود خالق الكون ووحدانيته."(الكلمات٧٩١)

وذلك هو تصوير القرآن الكريم للشمس، فهي سراج يضيء لنا الأرض ويكشف لنا آيات الله تعالى،ويستمد منها القمر نوره، فلو انطفأ ضياء الشمس لانطمست الآيات التي تتجلى في ذلك الضوء ولغرقت الأرض في عتمة تجعل وجودها أشبه بالعدم،ويلفت الأستاذ النورسي،رحمه الله،أنظارنا إلى نظام المجموعة الشمسية وما فيها من دقة بالغة،وإحكام في الخلق والتسيير فيقول: "فالسيارات الاثنتا عشرة -مع كرتنا الأرضية -والتي يطلق عليها اسم (المنظومة الشمسية) تجري بنظام متقن،وفْقَ حكمة تامَّة، وحسبَ ميزان دقيق،رغم الاختلاف الشديد فيما بينها،من حيث كتلها وجرمها ومن حيث صغرها وكبرها، ورغم التفاوت الواسع فيما بينها من حيث قربها وبعدها من الشمس،ورغم التنوع الهائل في حركاتها وسرعاتها.

نعم، فرغم هذا كله تجري السيارات في أفلاكها سابحة مشدودة الوثاق بالشمس، مرتبطة معها بقانون إلهي، هذا القانون هو الذي يطلق عليه علماء الفلك اسم (الجاذبية).. فهي تجري بنظام دقيق دون خطأ -ولو بمقدار ثانية واحدة -وتنقاد انقياداً تاماً، وبطاعة مطلقة لهذا القانون، كانقياد المصلين المأمومين لإمامهم.. وهذا دليل وأيّ دليل -بأوسع مقياس وأعظمه -على عظمة القدرة الربانية ووحدانية الربوبية.. فإن استطعت أن تقدّر عظمة هذا الأمر بنفسك فافعل، لترى مدى العظمة والحكمة في جعل تلك الأجرام الجامدة، وتلك الكتل الهائلة وهي بلا شعور تجري في منتهى النظام وكمال الميزان، وفي غاية الحكمة، وعلى صور متباينة، وضمن مسافات مختلفة، وبحركات متنوعة، ومن بعد ذلك تسخيرها جميعاً وَفْقَ نظام بديع رائع، "(الكلمات٧٩١)

ويخلص من هذه الوقفة مع النظام الشمسي وآيات الله تعالى فيه إلى الحقيقة التي يشير إليها هذا النظام وهو أنه من خلق الله وخاضع لتدبيره الحكيم، يقول الأستاذ النورسي رحمه الله: "فلو كانت للمصادفة أي تدخل -مهما كان ضئيلاً -في مثل هذه الأمور الجسام، لتوقعنا حدوث أخطاء تنجم عنها انفلاقات كونية عظيمة، واصطدامات هائلة، تدمر الكون وتجعله هباءً منثوراً.

لأنه لو سُمِّحَ للمصادفة أن تلعب لعبتها، فلربما تُوقفُ أحدَ هذه الأجرام الهائلة -بلا سبب -وتخرجه عن محوره، وبذلك تمهد السبيل لاصطدامات لا حدَّ لها بين أجرام لا يحصرها العدّ. فقدّر إذن مدى الهول المريع الناجم من اصطدام أجرام أضخم من كرتنا الأرضية بآلاف الأضعاف."(الكلمات٧٩٢)

وينتقل بنا الأستاذ النورسي رحمه الله من المنظومة الشمسية إلى الأرض التي هي مهدنا وموطننا ليصورها لنا في صورة بديعة، فهي سفينة عظيمة تمخر عباب الكون، ومسكن متجول في رحاب الوجود يعرض على ساكنيه بدائع القدرة الربانية، يقول رحمه الله: "سنفوّض عجائب أمور المنظومة الشمسية وغرائبها إلى العلم الإلهي، المحيط بكل شيء، ونحصر ذهننا في تأمل كرتنا الأرضية، التي هي مأمورة وواحدة من تلك السيارات الاثنتي عشرة، وثمرة من الثمار اليانعة لشجرة المنظومة الشمسية، فنرى:

إن سيارتنا هذه تُسخَّر بأمر ربَّاني -كما بيناه في المكتوب الثالث -لأجل أن تنهض بخدمات جليلة، ومهامّ جسيمة خلال سيرٍ وتجوال طويل، فتدور حول الشمس لتظهر بجريها ودورانها هذا: عظمة الربوبية وكبرياء الألوهية، وكمال الرحمة والحكمة. فكأن الأرض سفينة عظيمة لرب العالمين مشحونة

بعجائب مخلوقاته سبحانه، أو هي كمسكن متجول لذوي الحياة والشعور من عباده، أسكنهم فيها، ويجريهم بها للنزهة والتفرج في أرجاء الفضاء هذا."(الكلمات٧٩٢)

ما أجمله من تصوير لحركة الأرض ودورانها في الفلك المرسوم لها يلفت نظرنا إلى جانب بديع قل أن يلتفت إليه أحد، هو الجانب الجمالي في الوجود، والجانب "السياحي" للحياة الذي يكشف عن بدائع القدرة، وأسرار الحكمة الإلهية.

واستمع إليه يصور لك القمر في هذا التشبيه الجميل الذي يكشف وظيفة من وظائفه تتعلق بالزمن والحساب، ويقرب لك الأمر ليسهل عليك إدراك مفهوم الزمن: "والقمر أيضاً كأنه عقارب ساعة، مشدودة بالأرض تدلنا على الزمن والأوقات، و قد أُعطيتْ له مهام أخرى -عدا مهمة كونه ساعة للأرض -في منازل أخرى من هذا الفضاء."(الكلمات٧٩٢)

والقصد من هذا التفكر والتدبر هو أن يستدل الخلق على الرب سبحانه من النظر في مخلوقاته، ويقرؤوا فيها دلائل قدرته وعظمته ؛ لتتحقق العاية من خلقهم: مكرمين مميزين عن سائر المخلوقات التي تشاركهم الوجود في هذا الكون، قال الأستاذ رحمه الله: "وهكذا يتبين أن سيارتنا المباركة هذه (أي الأرض)،

قد أعطي لها من الحكَم الدقيقة، والوظائف الجليلة في سياحتها هـذه، مما يثبـت ويـدل بأوضـاعها، ويشـهد شـهادة قوية كقـوة الأرض وعظمتهـا علـى القـدير المطلـق القـدرة، وعلـى وحدانيتـه سبحانه. وقس البقية على أرضنا. "(الكلمات٧٩٢)

ويلفت الأستاذ رحمه الله نظرنا إلى ما أطلق عليه العلماء: قانون الجاذبية، هذه القوة الخفية التي تجعل الكون متماسكا مشدودا لا يشرد منه شيء ولا ينفلت شيء بل الكل سائر في الفلك المرسوم، والدرب المعلوم إلى الغاية التي رسمها العليم الحكيم، قال الأستاذ النورسي رحمه الله: "ثم إن جعل السيارات تدور دوراناً حكيماً حول محور الشمس، وشدّها بعرى معنوية -يطلق عليها اسم الجاذبية -بالشمس، ومن بعد ذلك تنظيم إدارتها، وتنسيق أمرها جميعاً، لا يتم إلاّ بتقدير القدير الحكيم، فضلاً عن ان سَوق الشمس لتجري بسرعة مذهلة - فتقطع مسافة خمس ساعات في ثانية واحدة إلى (برج هرقل) أو نحو شمس الشموس حسب تقدير العلماء ليس إلاّ بأمر سلطان الأزل والأبد، وبقدرته المطلقة، وكأنه سبحانه يستعرض بجيش المنظومة الشمسية وجنودها المنقادين لأمره مناورةً عسكرية إظهاراً لعظمة ربوبيته للعالمين أجمع. "(الكلمات٧٩٢ -٧٩٣)

بعد هذا التصوير الجميل البديع، وبعد هذه الرحلة غير

المألوفة التي أظهرت لنا المجموعة الشمسية في صورة جديدة يقف الأستاذ بديع الزمان، رحمه الله، على الغاية المقصودة في محاجة من ينكرون الخالق العظيم، ويزعمون أن الكون خلق صدفة وينسبون الخلق إلى الطبيعة ويعطونها بعض صفات الله، تعالى الله عما يقولون علوا كبيرا، بعد ذلك يخاطب الأستاذ النورسي، رحمه الله، من يزعم العلم بالفلك وشؤونه فيقول:

"فيا مَنْ يرى نفسه أنه قد تعلَّم شيئاً من الفلك، قل لي بربك أيمكن لمصادفة أن يكون لها شأن في أمور عظيمة كهذه؟

أم يمكن لسبب من الأسباب التي تراها ذات تأثير في حوادث الأكوان أن يصل بيده إليها؟، أو لقوةْ أياً كانت أن تدنو منها؟

هل تعتقد أن سلطاناً ذا عزّةْ وجلال يسمح لشريك أياً كان أن يتدخل في أمر ملكه العظيم، مظهراً بذلك عجزه وقصوره؟، حاش لله وكلاّ.

أو هل يمكن أن يسلم سبحانه أمور ذوي الحياة الذين هم ثمرة الكون ونتيجته وغايته وخلاصته إلى الأغيار؟، أو يسمح ولو بمقدار ضئيل بمداخلة هذه الأغيار في شؤونه الحكيمة؟

وهل يرضى العقل أن تترك سدىً خلاصة تلك الثمرات،

وأكمل نتائجها وخليفة الأرض، والضيف المكرم للسلطان.. أن يسلّم أمره الى الطبيعة والمصادفة فيهوي بذلك بعظمة السلطنة، وكمال الحكمة؟، حاشَ لله وكلاّ... وتعالى الله عن ذلك علواً كبيراً. "(الكلمات٧٩٣)

تأملات في الأرض

هذه الأرض هي مستقرنا ، وفيها نقضي ما قدر الله تعالى لنا من العمر على ظهرها ، وفيها من الآيات ما لا يحيط به إلا الله تعالى، ولكن الغفلة تشغلنا عن تلك الآيات ونمر بها كأنها ليست موجودة ، ونعيش على الأرض تشغلنا ظواهر الحياة وأمور معاشنا عن آيات الله تعالى فيها لا الآيات الظاهرة التي ندركها بل الآيات التي وجدت عليها قبل وجودنا فيها ، فكم منا من يقف قليلا ليفكر في هذه الأرض وما مر عليها من أحوال وأطوار قبل أن تصبح مهدا ميسرا لحياة الإنسان؟ هذه الأرض التي تمتد فيها السهول على مدى البصر ، وترتفع فيها الجبال: منها الشاهق ومنها دون ذلك ، ومنها الجبل المنفصل ومنها السلاسل الممتدة ، وفيها الأنهار الجارية ، والبحار المتعددة المساحة من بحار محيطة وبحار محاطة.

نجد الأستاذ بديع الزمان النورسي رحمه الله يقف في النافذة الثانية والعشرين من نوافذ الإيمان على هذا الأمر مستهلا بآيات كريمة تتحدث عن الأرض وما فيها من آيات تظهر تجليات القدرة الربانية والحكمة الإلهية وهذه الآيات هي قوله تعالى:

﴿أَلَمۡ نَجۡعَلِ ٱلۡأَرۡضَ مِهَٰدٗا ٦ وَٱلۡجِبَالَ أَوۡتَادٗا ٧ وَخَلَقۡنَٰكُمۡ أَزۡوَٰجٗا﴾ (النبأ/ ٦ – ٨).

وقوله سبحانه: ﴿فَٱنظُرۡ إِلَىٰٓ ءَاثَٰرِ رَحۡمَتِ ٱللَّهِ كَيۡفَ يُحۡيِ ٱلۡأَرۡضَ بَعۡدَ مَوۡتِهَآۚ إِنَّ ذَٰلِكَ لَمُحۡيِ ٱلۡمَوۡتَىٰۖ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٞ﴾ (الروم/٥٠).

ويصور لنا حال الأرض في دلالتها على الله تعالى الواحد الأحد القدير العليم فيقول: "لو تصورنا أن الكرة الأرضية رأس مخلوق عظيم، فإننا نجد في هذا الرأس الهائل في الكبر مائة ألف فم، وكل فم له مائة ألف لسان، وكل لسان يبين بمائة ألف برهان (الواجب الوجود) الواحد الأحد، القدير على كل شيء، والعليم بكل شيء. وكل لسان ينطق بمائة ألف شهادة صادقة على وحدانيته سبحانه، وأوصافه المقدسة وأسمائه الحسنى." (الكلمات٧٩٣)

ويمضي الأستاذ النورسي، رحمه الله، في رحلة استرجاع لحال الأرض وما كانت عليه من وضع السيولة قبل أن تصبح صالحة للحياة ولسكنى الإنسان، وما وجد فيها من الجبال التي جعلتها متماسكة ثابتة ويربط ذلك بالتدبير الإلهي الحكيم فيقول:

"فهيا ننظر إلى الأرض في بداية خلقها فهي في حالة من السيولة والميوعة، فخُلقَت منها الصخور الصماء، وخُلق منها التراب.. فلو كانت الأرض باقية على حالتها الأولى من الميوعة لتعذرت الحياة عليها،ولتعذر اتخاذها مسكناً صالحاً لأي نوع من أنواع السكنى. ولو كانت تلك الصخرة المهولة الصلدة - المتحولة من الميوعة -باقية على صلابتها لتعسرت الاستفادة منها. إذن فالذي منح الأرض وضعاً ملائماً للعيش لابد أن يكون ذلك الخالق الحكيم الذي يرى بحكمته المطلقة مَنْ في الأرض جميعاً، ويهيئ لهم حاجاتهم كافةً.

ثم نتأمل الجبال الشامخات التي تسند الأرض وتمسكها وتشدُّ كيانها أثناء دورانها... فنرى أن انقلابات هائلة تحدث في جوف الأرض وهذه الانقلابات يتولد عنها الكثير من الغازات والأبخرة فتتنفثها وتزفرها من خلال الجبال على صورة زلازل وبراكين، كيلا يصرفها عن القيام بحركتها المنتظمة وأداء مهماتها الأساسية ما يحدث في جوفها من أحداث، كما أنها تشكل بارتفاعات سفوحها سدوداً أمام طغيان البحار على ترابها، ولتصبح خزائن المياه الاحتياطية لحاجات الأحياء

ولتمشيط الهواء وتصفيته من الغازات المضرة ليصبح صالحاً للتنفس ولتجمع شتات الماء من كل مكان وتدخره للأحياء ولتكون كنوزاً لمعادن متنوعة تتوقف عليها إدامة حياة الكائنات."(الكلمات ٧٩٣ -٧٩٤)

وهكذا يمضي الأستاذ النورسي رحمه الله ليكشف عن جوانب الحكمة في التحولات التي مرت على الأرض حتى صارت صالحة لسكنى الإنسان ويظل همه أن يكشف حجاب الغفلة عن القلوب والحواس، وأن يتنبه الإنسان إلى الآيات المتجلية في الأرض الدالة على القدير الحكيم فيقول:

"فهذه الأوضاع وكثير غيرها، تشهد شهادة ناطقة على القدير المطلق والحكيم والرحيم وعلى وحدانيته سبحانه." (الكلمات ٧٩٤)

ويحاور أهل العلم المادي الذين تحجبهم قوانين الوجود عن الرب الموجد، أولئك الذين ينسبون خوارق الكون إلى الطبيعة، يحاورهم بعد أن كشف عن الحكمة والقدرة التي لا يمكن أن تكون إلا من الله تعالى، وهي محاورة العالم المطلع المدرك لقوانين الوجود، الذي ينظر إلى الأمور بعين البصيرة النافذة،

فيقول داعيا عالم الجغرافية إلى التفكر والتدبر والتبصر ليلمس يد القدرة الإلهية: "فيا أيها المتباهي بعلم الجغرافية، قل لي كيف تفسر هذه الأمور؟ اية مصادفة يمكنها أن تمسك بزمام الأرض المشحونة بالمصنوعات العجيبة، وتجعلها تسبح في فضاء تقطع فيه مسافة أربع وعشرين سنة في سنة واحدة، دون أن يتبعثر ما عليها من معارض العجائب...؟

ثم أمعن النظر فيما على الأرض من بديع الصنائع. وكيف أن العناصر كلها قد سُخِّرت لمهام حكيمةْ، حتى تراها كأنها تنظر نظرةَ إجلال واحترام إلى ضيوف القدير الحكيم، الجالسين حول مائدة الأرض، فتهرع إلى خدمتهم جميعاً.

ثم أمعن النظر في ملامح الأرض وسيمائها، وفي مطرزات تعاريجها، ونقوش انحناءات سطحها، والتواءات جسمها، ولاحظ شكلها وألوانها الزاهية المتنوعة بتنوع تربتها، والتي تتسم بالحكمة والإبداع، وتثير الحيرة والإعجاب.. فدونك الأنهار والسواقي والبحار والجداول وسفوح الجبال، فإنها كلها قد هُيئت ومُهدت لتكون سكناً للمخلوقات ووسائط نقلهم من مكان إلى آخر.

ثم ألا ترى أن ملأها -يعني الأرض -بكمال الحكمة والنظام البديع بمئات الألوف من أجناس النباتات وأنواع الحيوانات وبعث الحياة البهيجة فيها. ثُمَّ إعفاءَها بالموت من وظائفها التي كانت تقوم بها.. هذه الظاهرة تتوالى وتترى بانتظام دقيق. حتَّى إذا أُفرِّغَتَّ الأرض منها بوشر مجدداً بملئها.. ألا يعني هذا أن (البعث بعد الموت) حق لا ريب فيه.

أوَ ليست كل هذه الظواهر شهادات صادقة ناطقة بمئات الآلاف من الألسنة على القدير ذي الجلال، الحكيم ذي الكمال، وعلى وحدانيته سبحانه؟"(الكلمات ٧٩٤ -٧٩٥)

ويخلص من الحوار المفصل إلى خلاصة تقدم لنا حقيقة الأرض في عين العالم المؤمن البصير: "والخلاصة: أن الأرض التي هي بمثابة قلب الكون، قد اصبحت مَشْهَرَاً لعجائب مصنوعات الله البديعة، ومحشراً لغرائب مخلوقاته الجميلة، وممراً لقافلة موجوداته الوفيرة، ومسجداً لعباده المتراصين صفوفاً عليها، ومقراً لأداء عباداتهم.. هذه الأرض تظهر من شعاع التوحيد ما يملأ الكون نوراً وضياءً."(الكلمات ٧٩٥)

ثم يختم الحوار في أسلوب تحذيري للعالم المنكر لله وآياته لعله يفيق من غفلته: "فيا أيها المعتدّ بعلم الجغرافية، إذا كان رأس الأرض هذه يعرّف ربَّ العالمين بمائة ألف فم، وفي كل فم مائة ألف لسان، وأنت تعرض عن هذا التعريف، وتغمس رأسك في مستنقع الطبيعة، ففكر إذن في مصير جريمتك. إلى اي عقاب يسوقك هذا الإعراض والإنكار؟ احذر وانتبه وارفع رأسك من المستنقع الآسن وقل: آمنت بالله الذي بيده ملكوت كل شيء." (الكلمات ٧٩٥)

آية الحياة

يقف بنا الأستاذ سعيد النورسي رحمه الله في النافذة الثالثة والعشرين من نوافذ الإيمان وقفة تدبر مع آية الله تعالى في (الحياة). هذا السر الذي تتجلى فيه الأسماء الحسنى لله تعالى، والنور الباهر الذي يشق ظلمات العدم. والحياة حين نتفكر فيها إعجاز رباني دال على الله تعالى، ولا يشبع العقل من التفكر فيها والسياحة في آفاقها، والتمتع بعوالمها التي لا تحد ولا يحيط بها عقل. ومما قاله الأستاذ النورسي، رحمه الله، في الحياة:

"إن الحياة هي أسطع معجزة من معجزات القدرة الربانية وأجملها، وأقوى برهان من براهين الوحدانية وأبهرها، وأجمع مرآة من مرايا تجليات الصمدانية وألمعها."(الكلمات ٧٩٥)

والحديث عن الحياة يفتح نافذة واسعة على أنواع الحياة كلها: الحياة النباتية والحياة الحيوانية والحياة الإنسانية. وفي كل ميدان من ميادين الحياة آفاق لا يكاد يحيط بها العد، وبدائع إعجاز يحار فيها العقل، بل يسجد للذي أوجدها وأعد لها ما تقوم به وتستمر في غاية الدقة والانتظام. ويربط

الأستاذ النورسي، رحمه الله، بين الحياة ونور الشمس، فكما أن هذا النور مكون من ألوان الطيف فكذلك الحياة هي تركيب من عناصر متعددة تجتمع في الكائن الحي فتصبح فيه خلقا آخر تتجلى فيه الأسماء الحسنى ومنها: الحي القيوم. فمن اسم الله الحي يستمد كل حي حياته ووجوده، ومن قيوميته تكون الرعاية الدائمة للأحياء وإمدادها بكل ما تحتاج إليه مما لاتقوى هي على توفيره بذاتها.

يقول الأستاذ النورسي، رحمه الله:

"نعم، إن الحياة وحدها تبيّن الحي القيوم بأسمائه الحسنى وصفاته الجليلة وشؤونه الحكيمة. فالحياة كالنور.. فكما أن نور الشمس يحصل من امتزاج الألوان السبعة لطَيف الشمس، كذلك (الحياة) تحصل من امتزاج صفات كثيرة امتزاجاً دقيقاً.. وهي -أي الحياة -كدواء ناتج من امتزاج موادَّ كثيرة متنوعة امتزاجاً مقدراً تقديراً محكماً.

فالحياة إذن حقيقة مركبة من صفات كثيرة جداً. فصفات منها تتبسط وتتكشف ويظهر تمايزها واختلافها بعضها عن البعض الآخر، من خلال مسيلها في قنوات الحواس، التي تأخذ

كُل حاسة منها لوناً من ألوان هذه الصفات والأسماء.

أما القسم الأعظم منها فإنه يعلن عن نفسه من خلال الأحاسيس المفعمة (بالحياة)."(الكلمات ٧٩٥ – ٧٩٦)

وحين نتحدث عن الحياة والأحياء نتحدث عن الخلق ابتداء ثم خصائص لكل حي يتميز بها عن سائر الأحياء، ثم تأمين الرزق له وتدبير أمره، فكل ما على الأرض مسخر للأحياء لتدبير أمورهم وتيسير بقائهم واستمرارهم، والخلق والتدبير تتجلى فيهما الحكمة والقدرة، ومن نظر في الحياة والأحياء بتدبر تجلت له الأسماء الحسنى في أبهى صورها وأجلاها: الحي القيوم الرزاق الخالق الحكيم.

يقول الأستاذ النورسي، رحمه الله: "إذ حالما تحل (الحياة) في أيما جسم، إذا باسم (الحكيم) يتجلى فيه أيضاً حيث يشرع ببناء عشه بناءً متقناً وينظمه تنظيماً حكيماً. وفي الوقت نفسه يتجلّى اسم (الكريم) أيضاً حيث يرتّب مسكنه وينسقه ويزيّنه وفق حاجاته ويظهر آنئذ اسم (الرحيم) متجلياً أيضاً فيسبغ أفضاله وألطاف إنعامه لإدامة الحياة وبلوغ كمالها، وفي الوقت نفسه يتجلى اسم (الرزاق) بادياً للعيان حيث يهيئ المقومات

الغذائية -المادية والمعنوية -لبقاء تلك الحياة وانبساطها، بل يدخر قسماً منها في الجسم.."(الكلمات ٧٩٦)

هذا التجلي يكشف لنا معنى (الله الصمد) أي الذي تصمد إليه المخلوقات كلها بحاجاتها، وتستمد منه سر وجودها، فكل من في السماوات والأرض يسأل الله حاجاته بلسان الحال أو لسان المقال

﴿وَءَاتَىٰكُم مِّن كُلِّ مَا سَأَلْتُمُوهُ ۚ وَإِن تَعُدُّوا۟ نِعْمَتَ ٱللَّهِ لَا تُحْصُوهَآ ﴾ (إبراهيم/٣٤)

يقول الأستاذ النورسي رحمه الله: "وهكذا أصبحت (الحياة) بناءً على ماهياتها الجامعة هذه، مرآة تعكس (الصمدانية) التي تتمثل فيها شؤون الذات الربانية. ومن هذا السر أيضاً نجد أن (الحي القيّوم) جلَّ وعلا، قد خلق الحياة بكثرة هائلة، ووفرة شاملة، وبثها في أرجاء الوجود كافة، جاعلاً كل شيء يحوم حول الحياة، ويُسخَّر لأجلها، فلا غرو أن وظيفة الحياة جليلة."(الكلمات ٧٩٦)

إن تتابع الأحياء على الأرض منذ ما لا يعلمه إلا الله تعالى من الزمـان في صـور متعـددة مطـردة، وأشـكال وأحجـام وألـوان وخصـائص مختلفـة يـدل دلالـة قاطعـة لا ريـب فيهـا علـى الخـالق الحكيم والرزاق العليم والحي القيوم، وهـي آيـة لا يغفـل عنهـا إلا من عمي بصره وبصيرته

يقول الأستاذ النورسي رحمه الله: "نـرى أمامنـا ماثلـةً للعيـان أنواعـاً لا تعـد ولا تحصـى مـن (الحيـاة) تُخلـق كـل حـين، وإن أرواحهـا -الـتي هـي أصـولها وذواتهـا -تُخلـق دفعـةً واحـدةً مـن العدم، وترسل أنواعاً غفيرة من الأحياء إلى ميدان الحياة مباشرةً.. ألا يدل كل هذا على وجوب وجود ذات الجليل الأقدس و(الحـي القيوم) الـذي لـه الصفات القدسية والأسماء الحسنى أوضح مـن دلالة لمعان أشياء الأرض علـى الشـمس؟ فكمـا أن الـذي لا يعتقـد بوجود الشمس، ويتجاهل صفاتها المشاهدة على الأشياء، لا شـك مضـطر الى إنكـار النهـار المـلـيء بنـور الشـمس، كـذلك الـذي لا يعتقد بوجود ذلكم (الحي القيوم، المحيي والمميت) الـذي يتجلـى نـورُهُ بشـمس الأحديـة علـى الوجـود كلـه، فهـو مضـطر أيضـاً إلى إنكار وجود الأحياء التي تملأ الأرض، بل تملأ الماضي والمستقبل

معاً.. وعندها لا يرى لنفسه موقعاً إلاّ بين الأنعام أو أضل منها، فيكون بمستوى الجمادات."(الكلمات ٧٩٦ -٧٩٧)

آيات الله من حولنا لا يحصيها العد، ولكن تخفيها الغفلة، ويجلوها التفكر وجلاء الحواس وإيقاظ العقل، ومن عمي عنها لانشغاله بالشهوات التي تغطي قدرته على الإدراك بالران الذي يصدأ به قلبه، أو الشبهات التي تطفئ نور عقله، من كان حاله كذلك يحق لنا أن نتساءل مع الأستاذ النورسي عن حقيقته: هل يستحق أن يسلك مع العقلاء من بني آدم؟

آية الموت

يقف بنا الأستاذ بديع الزمان سعيد النورسي، رحمه الله، في النافذة الرابعة والعشرين على الآية المقابلة للحياة وهي آية الموت، وقد استهل هذه النافذة بقول الله تعالى:

﴿لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۚ كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُۥ ۚ لَهُ ٱلْحُكْمُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ (القصص/٨٨).

والهلاك يعني التغير والانتقال من حال إلى حال، فالميت ينتقل من الدنيا إلى عالم البرزخ، ويخلع عنه جسده الأرضي ليكون له كيان مختلف في عالم البرزخ، ويوم القيامة تعود الأرواح إلى الأجساد لتدخل عالم الخلود الأبدي.

ونظرة الأستاذ النورسي رحمه الله إلى الموت نظرة إيجابية تتجاوز السائد المألوف بالنظر إلى الموت من خلال الجسد الفاني المتحلل في التراب، وما يرافق ذلك من مشاعر غامضة لدى بعض الناس، وما يصيب الناس من صدمة الموت التي لم يحسبوا لها حسابا. تجاوز الأستاذ النورسي ذلك كله ذلك إلى بيان حقيقة

الموت قال رحمه الله: "إن الموت كالحياة برهان ساطع للربوبية، وهو حجة في غاية القوة على الوحدانية، مثل الحياة، إذ بدلالة الآية الكريمة:

﴿ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْمَوْتَ وَٱلْحَيَوٰةَ﴾

إن الموت ليس عدماً، ولا إعداماً، ولا فناءً، ولا لعبة العبث، ولا انقراضاً بالذات من غير فاعل، بل هو: تسريح من العمل، من لدن فاعل حكيم، وهو استبدال مكان بمكان، وتبديل جسم بجسم، وانتهاءٌ من وظيفة، وانطلاق من سجن الجسم، وخلق منتظم جديد وَفقَ الحكمة الإلهية. كما بينا في المكتوب الاول." (الكلمات ٧٩٧)

هذا التوصيف للموت أتمنى أن يغرس في ذهن كل مسلم لتظل حقيقة الموت بارزة له متجلية في عقله وحواسه لتبدو له الصورة الكاملة للوجود من بدء الخلق إلى دخول أهل الجنة الجنة ودخول أهل النار النار. هذا التصور للموت تصور إيجابي يجعل المسلم يتقبل الموت على ما فيه من مرارة الفراق ليعلم حقيقة ذلك الذكر النبوي في مخاطبة أهل القبور: "السلام عليكم أهل الديار من المسلمين والمؤمنين أنتم السابقون وإنا إن شاء الله بكم

لاحقون " (رواه مسلم) بل يجعله يحب الموت.

أليست الدنيا سجن المؤمن، وهل من عاقل يحب البقاء في السجن؟ ومن أحب لقاء الله أحب الله لقاءه، وما أجمله من تصوير للموت أنه تسريح من العمل، وتبديل جسم وتقاعد من العمل.

وإذا كانت الجنة غاية كل مسلم فهل يمكن الوصول إلى الجنة من غير عبور قنطرة الموت؟

ويقرب الأستاذ النورسي رحمه الله المعاني بالأمثلة التي تجعل الفكرة البعيدة قريبة الفهم، وها هو يرى أن الموت كالحياة دليل على بعض أسماء الله تعالى، قال الأستاذ النورسي رحمه الله: "نعم، كما أن الموجودات الحية المبثوثة في الأرض كافة، تشير بحياتها إلى الخالق الحكيم وإلى وحدانيته. فتلك الأحياء تشهد بموتها أيضاً على سرمدية ذلك الحي الباقي، وتشير إلى وحدانيته جلّ شأنه. وحيث إننا بحثنا في (الكلمة الثانية والعشرين) أن الموت برهان قاطع على الوحدانية، وحجة دامغة على السرمدية، لذا نحيل البحث إليها. إلاّ أننا نبين هنا نكتة مهمة فقط وهي:

إن الأحياء مثلما تدل بوجودها على الخالق الحي فإنها تشهد

بموتها على سرمدية الحي الباقي وعلى وحدانيته. ولنأخذ شاهداً على ذلك سطح الأرض، فإن النظام الرائع الباسط هيمنته على الأرض بأسرها والذي يبدو لنا من خلال مظاهره عياناً يشهد شهادة صادقة على الصانع القدير."(الكلمات ٧٩٧)

ويتخذ الأستاذ النورسي رحمه الله تعالى من تقلبات أحوال الأرض بين شتاء وربيع عبر الزمان دليلا بينا على ما في الموت من آيات بينات دالة على الله تعالى، فكل ربيع بعث جديد، وكل خريف وشتاء هو دورة من دورات الموت المتعاقبة، قال رحمه الله:

"فعندما يسدل الشتاء كفنه الثلجي الأبيض على وجه الأرض الربيعي، وتموت الأحياء التي كانت تزخر بالحياة فوقها: فإن منظر هذا الموت ينقل نظر الإنسان إلى أبعد من اللحظة الراهنة، فيركب متنَ الخيال ليذهب بعيداً إلى الماضي الذي درجت إليه جنائز كل ربيع راحل، فتتفتح عندئذ أمام النظر مشاهد من الموت والحياة أوسع من هذا المنظر المحصور في الحاضر الراهن.

لأن كل ربيع راحل مما لا يُحصى من الأربعَة، كان مشحوناً ملء الأرض بمعجزات القدرة الإلهية، وهو يُشعِّرُ الإنسان بمجيء

موجودات تتدفق بالحياة وتملأ الأرض كلها في ربيع مقبل.

فنجد بهذا أن موت الربيع يشهد شهادة بمقياس عظيم جداً، وبصورة رائعة جداً وبدرجة من القوة أكثر على الخالق ذي الجلال، والقدير ذي الكمال، والحي القيوم، والنور السرمدي، ويشير إلى وحدانيته، وسرمديته تبارك وتعالى. فيبين -هذا الموت -دلائل باهرة إلى حدّ يرغمك معه على القول بداهةً (آمنت بالله الواحد الأحد)." (الكلمات ٧٩٧ -٧٩٨)

إنها دورة متكررة للموت والحياة نشهدها عبر الفصول المتعاقبة، ولكنها دورة يعرض عن إدراك أسرارها من غلفت الغفلة حواسه وعقله.

ويقف على خلاصة ما يريده من بيان فكرته عن الموت فيقول: "الخلاصة: إنه حسب الحكمة التي تتضمنها الآية الكريمة: ﴿وَيُحْيِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا﴾ فإن الأرض الحية هذه كما أنها تشهد على الخالق الحكيم سبحانه بحياتها، فإنها بموتها تلفت النظر إلى التأمل في معجزات القدرة الإلهية التي تطرز جناحي الزمن: الماضي والمستقبل، فيعرض الله سبحانه بهذا الموت أمام نظر الانسان ألوفاً من الأربعَة (جمع ربيع) بدلاً من ربيع

واحد، فبدلاً من أن تشهد على قدرته سبحانه معجزة واحدة وهي هنا الربيع الحاضر تشهد عليها بهذا الموت الذي حلَّ في الربيع الحاضر ألوفُ المعجزات.

فكل ربيع من تلك الألوف من الأربعَة، يشهد شهادة أقوى على الوحدانية من الربيع الحاضر، لأنَّ الذي ارتحل إلى جهة الماضي قد ارتحل إليه بأسباب قدومه الظاهرة التي ليس لها صفة البقاء، فالأسباب التي تذهب وتأتي ليس لها إذن تأثير قط في إحلال ربيع جديد عقب الربيع الراحل، بل القدير ذو الجلال الذي لا يحول ولا يزول هو الذي خلقه من جديد وربطه بحكمته بالأسباب الظاهرة، وأرسله على الصورة الرائعة إلى ميدان الشهود.

أما وجوه الأرض التي ستأتي في المستقبل، والمزهرة بالربيع النابض بالحياة، فهي تشهد شهادةً أقوى من شهادتها على الربيع الحاضر، لأن كل ربيع يأتي في المستقبل إنما يأتي إليها من العدم، ومن غير شيء، ويبعث إلى المكان المعين، ومن ثمة تُحمَّلُ عليه وظيفة خاصة. "(الكلمات ٧٩٨)

وأخيرا يوجه الأستاذ النورسي رحمه الله الخطاب إلى من عمي عن آيات الله تعالى وأسمائه الحسنى المتجلية في الموت فيقول: "فيا أيها الغافل المطموس في أوحال الطبيعة، والغارق فيها، إنَّ مَنْ لا تظهر يدُ حكمته وقدرته في المستقبل الآتي كله، ومَنْ لا يترك بصمات هذه اليد على الماضي الذاهب كله، كيف يستطيع -وأنَّى له ذلك -أن يتدخل في حياة هذه الأرض؟ فهل يمكن للمصادفة والطبيعة اللتين هما من غير شئ أن يتدخلا في أمر الحياة على الأرض؟

إن كنت صادقاً وراغباً في نجاة نفسك من هذه الورطة، فادنُ من الحقيقة وقل: إن الطبيعة إن كانت شيئاً موجوداً فهي كُرَّاس القدرة الإلهية ليس إلاّ. أما المصادفة فهي ليست إلاّ ستار الحكمة الإلهية الخفية الذي يسترُ جهلَنا." (الكلمات ٧٩٩)

الإمكان والجمال دليلان على الله

يمضي الأستاذ بديع الزمان النورسي رحمه الله في فتح نوافذ الإيمان لتستنير العقول والقلوب، وليكون الإنسان أنى اتجه مع آيات الله تعالى المبثوثة من حوله في كل مكان، ونحن هنا مع النافذتين: الخامسة والعشرين والسادسة والعشرين من نوافذ الإيمان.

في النافذة الخامسة والعشرين يطلعنا الأستاذ النورسي على قانون الإمكان والوجوب ليتخذه دليلا على الله تعالى، وهذا القانون وهذه النافذة تذكرنا بقول مشهور لأعرابي هدته فطرته السليمة إلى الله تعالى فواجه موجات التشكيك والإلحاد بقوله: "البعرة تدل على البعير والخطو يدل على المسير، فسماء ذات أبراج وأرض ذات فجاج ألا تدل على العليم الخبير؟"

بالمنطق نفسه ولكن بأمثلة مختلفة يتحدث الأستاذ النورسي، رحمه الله، عن قانون الإمكان والوجوب فيقول: "إن المضروب يدل بالضرورة على فاعل، وهو الضارب، والمصنوع المُتْقَنُ يستوجب الصانعَ المتقنَ، ووجود الولد يقتضي الوالد، والتحت يستلزم الفوق... وهكذا.

وقد أطلق العلماء على أمثال هذه الصفات مصطلح (الأمور الإضافية) أي النسبية، أي لا يحصل الواحد دون الآخر. فجميع ما في هذه الأمور من (إمكان) سواء في جزئيات الكون أو كلياته، تدل على (الوجوب). وما يُشَاهدُ في الجميع من انفعالات تدل على فعل واحد، وما يشاهد في جميعها من مخلوقية تدل على الخالقية، وما يشاهد فيها من كثرة وتركيب يستلزم الوحدة.

فالوجوب، والفعل، والخالقية، والوحدة، تستلزم بالبداهة والضرورة مَنْ هو الموصوف بـ (الواجب، الفاعل، الخالق، الواحد) الذي هو ليس ممكناً ولا منفعلاً ولا مخلوقاً ولا كثيراً ولا مركّباً." (الكلمات ٧٩٩)

بناء على ذلك وفي منطق قريب لا تعقيد فيه يقول: المخلوق يدل على الخالق والمرزوق يدل على الرازق والحي يدل على المحيي، وهكذا تتجلى أسماء الله الحسنى سبحانه في كل أمر من الممكنات المتجلية على الأرض وفي الكون التي كل منها دليل بليغ على الله تعالى.

يقول الأستاذ النورسي رحمه الله: "كما يُشاهَدُ (الوجوب) من خلال (الإمكان) ويُشَاهَدُ (الفعل) من خلال (الأفعال) وتُشاهَدُ (الوحدة) من خلال (الكثرة)، وكما يدل وجود كل

منها على وجود الآخر دلالة قاطعة، كذلك الصفات المشاهدة على الموجودات كـ (المخلوقية، والمرزوقية) (أي كون الموجود مخلوقاً ومرزوقاً) تدل على شؤون (الخالقية والرزاقية) دلالة قاطعة.. فوجود هذه الصفات أيضاً يدل بالضرورة وبالبداهة على (الخلّاق الرزّاق، والصانع الرحيم)...

أي أن كل موجود يشهد على (الذات الأقدس لواجب الوجود) وعلى مئات من أسمائه الحسنى بما يحمل من مئات من أمثال تلك الصفات. فإن لم تقبل أيها الإنسان بجميع هذه الشهادات فينبغي لك إذن إنكار أمثال تلك الصفات كلها." (الكلمات ٧٩٩ -٨٠٠)

ولا يخفى أن الإيمان بالله تعالى ليس قضية عقلية تثبت بالبرهان فحسب بل هي فوق ذلك نور يقذف في القلب، وحياة بعد موت، ونور لا يترك للظلام أثرا في الحياة.

ويمضي بنا الأستاذ النورسي، رحمه الله، إلى عالم الجمال في الكون متخذا منه بوابة تدلنا على ربنا الجميل وذلك في النافذة السادسة والعشرين. والجمال متجل في كل زاوية من زوايا الوجود من طبيعة وإنسان وطير وحيوان وفي سائر المخلوقات، فمن الذي أبدع هذا الجمال وجعله عنوان للمخلوقات؟ أليس خالقا

جميلا يتجلى جماله في خلقه؟

يقول الأستاذ النورسي رحمه الله: "إن أنواع الجمال الزاهر، وأشكال الحسن الباهر، التي تتلألأ على وجوه الكائنات السريعة الأفول، ثم تتابع هذا الجمال وتجدده بتجدد هذه الكائنات، واستمراره باستمرار تعاقبها.. إنما يظهر أنه ظلّ من ظلال تجليات جمال سرمدي لا يحول ولا يزول." (الكلمات ٨٠٠)

ويقول مبينا أثر الجمال على المخلوقات ذات الشعور والجمال مما يدفع إلى العشق ويجذب أنظار المحبين وقلوبهم إليه، وتاريخ البشرية عامر بالمحبين الذي تعلقوا بالجمال الإلهي بمحبة صادقة فيها سعادة ما بعدها سعادة، ونعيم لا شقاء فيه: "ثمَّ إن ما يخفق به قلب الكون من حُبّ جاد وعشق صادق يدل على معشوق دائمْ باقْ... إذ كما لا يظهر شيء في الثمرة ما لم يوجد في الشجرة نفسها، فكذلك العشق الإلهي العَذْب الذي يستحوذ على قلب الإنسان -وهو ثمرة شجرة الكون -يبين أن عشقاً خالصاً ومحبةً صادقة بأشكال شتّى، مغروزة في كيان الكون كله، وتتظاهر بأشكال شتّى. هذا الحب المالك قلب الكون يفصح عن محبوب خالد سرمدي.

ثُمَّ إنَّ ما تمور به قلوب اليقظين الراشدين من أصفياء

الناس، وما يشعرون به من انجذاب، وما يؤرقهم من وَجْد، وما يحسون به من جذبات، وما تتدفق به صدورهم من توق وحنين، إنما يدل على أن حنايا ضلوع الكون تعاني ما يعاني الإنسان، وتكاد تتمزق من شدة انجذابها وعظيم جذباتها، التي تتظاهر بصور متنوعة. وهذا الجذب لا ينشأ إلاّ من جاذب حقيقي، وجاذبية باقية أبدية.

ثم إن أرقَّ الناس طبعاً وألطفهم شعوراً، وأنورهم قلباً، وهم الأولياء الصالحون من أهل الكشف والشهود قد أعلنوا متفقين على أنهم قد تبددت ظلمات نفوسهم بإشراق أنوار تجليات ذي الجلال، وذاقوا حلاوة تعريف الجميل ذي الجلال، وتودّده إليهم.

فإعلانهم هذا شهادة ناطقة على (الواجب الوجود) وتعريف نفسه عن طريقهم للإنسان..ثم إن قلم التجميل والتحسين الذي يبدع نقوشه في وجه الكائنات، يدل بوضوح على جمال أسماء مالك ذلك القلم المبدع.."(الكلمات ٨٠٠ -٨٠١)

ويجمل الأستاذ النورسي حديثه عن الجمال وآثاره فيقول: "وهكذا فالجمال الذي يشع من وجه الكون.. والعشق الذي يخفق به قلبه.. والانجذاب الذي يمتلئ به صدره.. والكشف والشهود الذي تبصره عينه.. والروعة والإبداع في مجموع الكون

كله.. يفتح نافذة لطيفة جداً ونورانية ساطعة أمام العقول والقلوب اليقظة، يتجلى منها ذلك الجميل ذو الجلال، الذي له الأسماء الحسنى، وذلك المحبوب الباقي والمعبود الأزلي."(الكلمات ٨٠١)

وكعادته في ختام الحديث عن كثير من نوافذ الإيمان يوجه الخطاب إلى الغافل عن الله وآياته المتجاهل لأدلة الإيمان المبثوثة في الكون المجادل بغير هدى ولا علم فيقول له: "فيا أيها المغرور التائه في ظلمات المادية، ويا أيها الغافل المتقلب في ظلمات الأوهام والمختنق بحبال الشبهات، عُد إلى رشدك، واسمُ سمواً لائقاً بالإنسان، انظر من خلال هذه المنافذ الأربعة، وشاهد جمال الوحدانية، واظفر بكمال الإيمان، وكن إنساناً حقيقياً."
(الكلمات ٨٠١)

الله خالق كل شيء

يبدو أننا في كثير من الأحيان نتعامل مع الأسباب وننسى موجدها، وننسب إليها ما يجري من حولنا من أمور. فالحرارة والنور من الشمس، ونزول المطر نربطه بالعوامل الجوية، والثمر ننسبه إلى الشجر، وهكذا تحجبنا الأسباب عن الله تعالى الذي هو رب الأسباب وخالقها ومسيرها وفق حكمته.

في النافذة السابعة والعشرين من نوافذ الإيمان يقف بنا الأستاذ بديع الزمان سعيد النورسي، رحمه الله، على حقيقة ناصعة تكشفها آية كريمة استفتح بها هي:

﴿ٱللَّهُ خَٰلِقُ كُلِّ شَيْءٍۖ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ﴾ (الزُّمَر/٦٢).

إن قانون السببية هو البارز البادي في الكون، ولكن من عمى البصر والبصيرة أن نقف عنده ولا نتعداه إلى ما وراءه، فلا نربط الأسباب والمسببات بالله الذي أوجدها وجعلها قوانين مسيرة للوجود، لكن هذه القوانين لا تجري من تلقاء نفسها، ولا تملك أمرها، ومن هنا نجد أنها بين حين وآخر تتخلف أو تخرق لتهز ما استقر لدى الإنسان من هيمنتها وليبصر حقيقة ما يجري حوله، فخالق كل شيء هو الله تعالى، والمهيمن على كل شيء هو الله تعالى.

ولنستمع إلى الأستاذ النورسي رحمه الله يحدثنا عن هذا الأمر ويضرب لنا مثلا بالقوة الحافظة لدى الإنسان، يقول: "سنطل من هذه النافذة على ما في موجودات الكون من (أسباب ومسبَّبات) فنرى أن أسمى الأسباب وأشرفها قاصرةٌ يدُها عن بلوغ أدنى المسببات وعاجزة عن إدراك ما ينجم عنها. فالأسباب إذن ليست إلاّ ستائر وحجباً، فالذي يوجِد (المسبَّبات) هو غير الأسباب.

ولنوضح الكلام بمثال: القوة الحافظة في ذهن الإنسان، وهي بحجم حبة من خردل موضوعة في زاوية من زوايا دماغه، نراها وكأنها كتاب جامع شامل، بل مكتبة وثائقية لحياة الإنسان، حيث تضم مستندات جميع أحداث حياته من دون اختلاط ولا سهو. تُرى أي سبب من الأسباب يمكن أن يبرز لتوضيح وتفسير هذه المعجزة الظاهرة للقدرة الإلهية؟ أهو تلافيف الدماغ؟ أم أن ذرّات حجيرات الدماغ وهي بلا شعور تستطيع الحفظ والتسجيل؟ أم رياح المصادفات العشوائية؟

فـلا يمكـن أن تكـون هـذه المعجـزة البـاهرة إلاّ مـن إبـداع (صانعْ حكيمْ) جعلَ تلك (القوة الحافظة) مكتبة أو سجلاً يضـم صحائف أعمـال الإنسـان، ليـذكّره بـأن ربَّه لا يغـادر صـغيرة ولا كبيرة إلاّ أحصاها، وليعرضه أمام المشهد الأعظم يوم الحساب.. خذ (القوة الحافظة) في ذهن الإنسان، وقس عليها سائر المسبّبات من بيوض ونوى وبذور وأمثالها من المعجزات البديعة المصـغرة، تَـرَ أينما وليتَ نظرك وفي أي مصنوع كان، بإنك أمـام خـوارق إبـداع لا يقوى عليها سببٌ مـن الأسـباب، بـل حتـى لـو اجتمعـت الأسـباب جميعها لإيجاد تلك الصنعة الخارقة لأظهـرت عجزهـا عجـزاً تامـاً ولو كان بعضها لبعض ظهيراً." (الكلمات ٨٠١ -٨٠٢)

إن من تفكـر في مـا وراء الظـواهـر اكتشـف أن في مـا حولـه آيـات دالـة علـى الله تعـالى بـدلا مـن أن تكـون حجبـا بـين العبـاد وربهم، وذلك ظاهر في المثل الذي ضربه الشيخ الجليل بشأن القوة الحافظة لدى الإنسان. ويريد الأستاذ رحمه الله أن يعري الأسباب مـن الإرادة والقـدرة، ويصـورها علـى حقيقتهـا أدوات بيـد القـدرة الإلهية لا غير فيضرب مثلا لذلك الشمس، هذه الظاهرة الكونية الضخمة التي لها آثار كبيرة على الأرض فيقول: "ولنأخذ الشمس مثلاً -التي يُظَنّ أنها سبب عظيم -فلو قيل لها مفترضـين فيهـا

الشعور والاختيار: أيتها الشمس العظيمة، هل تستطيعين إيجادَ جسم ذبابة واحدة؟ فلا شك أنها ستردُّ قائلة: إنَّ ما وهبني ربي من ضياء، وأغدق عليَّ من حرارة وألوان، لا يؤهلني للخلق، ولا يمنحني ما يتطلبه إيجاد ذبابة من عيون وسمع وحياة، لستُ مالكة لشيء منها قط، فهذا الأمر هو فوق طاقتي كلياً."(الكلمات ٨٠٢)

إن الأستاذ النورسي يلح على حقيقة يريد أن تثبت في العقول والقلوب هي: "أن وراء حجاب الأسباب ربّاً كريماً، حكيماً، رحيماً، وأن ما نراه من أشياء ليست إلاّ من صنعه وإبداعه سبحانه."

إن ما يجري في الكون من خلق ورزق، ومن إبداع في التكوين، ومن متابعة كل صغيرة وكبيرة، وتهيئة الأسباب لتمضي أمور الكائنات في نظام مطرد: يدل على أن وراء الأسباب ربا عليما حكيما قديرا بديعا لا يخفى عليه شيء، وهو على كل شيء وكيل، وعلى كل شيء قدير.

يقول الأستاذ النورسي رحمه الله: "إن (الأسباب) التي هي بلا شعور عاجزة كلياً عن ملاحظة -مجرد ملاحظة -غاية لشيء مُسَبّب، بينما أي مخلوق يرد الوجود لا تُناط به حكمة

واحدة بل حكمٌ عديدة جداً، وفوائد جمّة وغايات شتى. أي أن الرب الحكيم والكريم هو الذي يُوجِّد الأشياء ثم يرسلها إلى هذا العالم ويجعل تلك الفوائد غاية وجودها."(الكلمات ٨٠٢)

ويضرب الأستاذ لذلك مثلا من المطر الذي ينزل من السماء، ويتساءل إن كانت الأسباب المؤدية إلى نزول المطر تملك شعورا بالرحمة والشفقة، وقدرة على معرفة حاجات من ينزل عليهم المطر؟، ، ثم يردّ الأمر لله تعالى وحده فيقول:

"فمثلاً: إن الأسباب الظاهرة لتكوين المطر، عاجزة عجزاً مطلقاً، وبعيدةٌ كل البعد عن أن تشفق على الحيوانات، أو تلاحظ أمورها وترحمها وتنزل لأجلها.

إذن فالذي تكفّل برزقها هو الخالق الجليل الذي يرسل المطر ويغيثها رحمة بها، وكأنه -أي المطر -رحمة متجسمة لكثرة ما فيه من آثار الرحمة والفوائد الجمة. ومن هنا أطلق على المطر اسم (الرحمة)."(الكلمات ٨٠٢ -٨٠٣)

ويلتفت الأستاذ النورسي إلى مظاهر الجمال في الكون، ويتساءل عن سر وجودها، فهل يمكن أن تكون من ذات نفسها أو تكون عبثا أم أنها رسائل من الرب العليم القدير إلى عباده ليعرفوه؟

يقول رحمه الله: "ثم إن التزيينـات البديعـة والجمـال المبتسـم على النباتات والحيوانات التي تملأ وجه المخلوقات قاطبة، وجميع المظاهر الجمالية عليها، تدل على أن وراء ستار الغيب مدبّراً يريد أن يعرِّف نفسه ويحبّبها بهذه المخلوقات الجميلة البديعة وتدل على وجوب وجوده ووحدانيته.

إذن فالتزيينـات الرائعـة في الأشـياء، ومـا في مظاهرهـا مـن جمال بديع، وكيفياتها المتسمة بالحكمة، كلها تدل قطعاً علـى صفتي التعريف والتودّد. وهاتـان الصـفتان -التعـرف والتـودّد- تشـهدان بالبداهـة علـى صـانع قـدير معـروف ودود، فضـلاً عـن شهادتهما على وحدانيته سبحانه.."(الكلمات ٨٠٣)

ويختـم رحمـه الله حديثـه عـن الأسـباب والمسـببات ومـا ينـتج عنها من غايات، ويخاطب (عابد الأسباب) بكلام واضح فيقـول: "وزبدة الكلام: إن السـبب الـذي نـراه شـيئاً عادياً جداً، وعـاجزاً عجـزاً تامـاً، قـد اسـتند إليـه مسـبَّبٌ في منتهـى الإتقـان والنفاسـة. فهذا (المسبَّب) المتقن لا بد أنه يعزل ذلك السبب العاجز عن القيام بإيجاده.

ثـم ان غايـة (المسـبَّب) وفوائـده ترفـع الأسـباب الجاهلـة والجامـدة فيمـا بينهـا وتسـلمها إلى يـد الصـانع الحكـيم.ثم إن التزيينـات المنقوشـة علـى ملامـح (المسـبَّب) ومـا يتجلـى عليهـا مـن عجائب الرحمة تشير إلى صانع حكيم يريد أن يُعـرِّف قدرتَـهُ إلى ذوي الشعور من مخلوقاته، ويحبّب نفسه إليهم.

فيـا عابـد الأسـباب. أيهـا المسـكين، ما تفسير هـذه الحقـائق المهمة الثلاث التي وضعناها بين يديك؟ وكيـف يمكنـك أن تقنـع نفسـك بأوهامـك؟ إن كنـت راشـداً فمـزّق حجـاب الأسـباب وقـل: (هو الله وحده لا شريك له) وتحرر من الأوهام المضلّة."(الكلمات ٨٠٣)

الحكمة والنظام دليلان على الله

من المشكلات المعاصرة للإنسان في زماننا أنه حرم متعة مهمة من المتع الخاصة بالإنسان هي: متعة التدبر والتأمل والتفكير في ما حوله من الأشياء. ويبدو أن هذا الحرمان هو ثمرة الإيقاع السريع للحياة الذي يجعل الإنسان في معظم الأحيان في عجلة من أمره، ويجعله دائم الانشغال، ولسان حال أكثر الناس حين تسألهم عن أحوالهم أنهم يقولون: لا وقت لدينا، نحن في شغل دائم، ومن آثار هذا الأمر عى المستوى الاجتماعي قلة الواصل بين الناس، وقد سد مسد التواصل المباشر التواصل الإلكتروني لا في الأعياد وحدها بل في سائر العام!!

ويبدو أن على الإنسان أن يكسر قيد الدوّامة التي يدخل فيها في بداية كل يوم ولا يكاد يخرج منها، يكسرها حتى لا يمضي في الحياة في غفلة وتنتهي حياته وهو لم يستمتع بما حوله في الوجود من آيات ربانية بديعة يخسر إن هو خرج من الدنيا ولم ينظر فيها ولم يستمتع بها. وتصور من يذهب إلى مدينة جميلة ذات مبان متقنة، وحدائق جميلة، وألوان من الصنعة متعددة، تصوره وقد أسدل ستارا على نافذة الحافلة التي يركبها بقصد

الفرجة والتمتع، أو تصوره وقد ذهب في نوم عميق في معظم وقت الرحلة، ذلك حال كثير من الناس مع الآيات البديعة في الوجود.

ولكي يجتنب الإنسان هذا الحال نجد في القرآن الكريم كثيرا من الآيات التي تدعو إلى النظر في آيات الله تعالى في النفس والكون وإلى التفكر فيها وعدم الغفلة عنها.

هذا المنهج: منهج التدبر والتفكر هو الذي اتبعه الأستاذ بديع الزمان سعيد النورسي رحمه الله ودعا إليه في رسائل النور، ومن ذلك ما جاء في النافذة الثامنة والعشرين من نوافذ النور التي نطل من خلالها هذا اليوم، وقد استهلها بقوله تعالى:

﴿ وَمِنْ ءَايَـٰتِهِۦ خَلْقُ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَـٰفُ أَلْسِنَتِكُمْ وَأَلْوَٰنِكُمْ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَـَٔايَـٰتٍ لِّلْعَـٰلِمِينَ ﴾ (الروم/٢٢).

ففي خلق السماوات والأرض آيات، وفي اختلاف ألسنة الناس وألوانهم آيات، وفي هذه الزاوية من النظر في الكون نجد ما لا طاقة للإنسان بإدراكه من الآيات الظاهرة والخفية.

والتفكر والتدبر يكشف للإنسان حقائق الوجود، وتجليات الأسماء الحسنى التي تزيده بالله معرفة وله محبة، قال رحمه الله بعد الآية الكريمة المذكورة قبل قليل، متأملا متدبرا مستخلصا

لقوانين استكشفها من النظر الفاحص:

"إذا تأملنا في هذه الكائنات فسنشاهد أنَّ في كل شيء ابتداءً من حجيرات الجسم وانتهاءً بمجموع العالم كله، حكمة شاملة، ونظاماً متقناً.

فلدى فحصنا لحجيرات الجسم نجد أن تدبيراً بالغ الأهمية ينظّم شؤون تلك الحجيرات المتناهية في الصغر: ينظمها حسبَ أوامر مَنْ يرى مصالح الجسم كله، ويدير أموره. فكما أن قسماً من الأغذية يدَّخر في الجسم على صورة شحوم داخلية تُصرف عند الحاجة، كذلك نجد في كل من تلك الحجيرات الصغيرة قابلية ادَّخار دقيقة." (الكلمات ٨٠٣ -٨٠٤)

إذا الكون مشمول بحكمة شاملة ونظام متقن، ولولا ذلك لما انتظم هذا الانتظام الدقيق الذي سار عليه منذ وجد وإلى ما يشاء الله من الزمان، هذا الكون بما فيه من مجموعات شمسية، ومجرات هائلة، لا يصدم بعضها بعضا ولا تتخلف عن مدارها طرفة عين، فضلا عما في الأرض من الآيات التي تظهر إبداع القدير الحكيم، وأنى يتجلى هذا الأمر لمن لم يتفكر ولم يجد وقتا للتدبر والتأمل، ويمضي الأستاذ النورسي رحمه الله متأملا متدبرا فينظر في النبات والحيوان بل الكون كله ليجد

آيات الله في ذلك كله قال رحمه الله: "ثم ننظر إلى النباتات فنجد أنها مشمولة بتربية خاصة. وننظر إلى الحيوانات فنجد أنها تعيش في بحبوحة من الكرم العميم. وننظر إلى أركان الكون العظيمة فنجد أن إدارةً وتنويراً في منتهى العظمة يكتنفانه من كل جوانبه ويفضيان به إلى غايات عظيمة وجليلة." (الكلمات ٨٠٤)

وانظر كيف يصور لك الكون تصوير من ينظر إليه من داخله وخارجه حين ينظر بنور الله ويرى الأشياء بمنظار القرآن الكريم قال رحمه الله: "وننظر إلى مجموع الكون كله، فإذا به يتجلى أمامنا وكأنه مملكة منسقة الأرجاء، أو مدينة رائعة الجمال، أو قصر منيف باذخ، وإذا بنا أمام أنظمة دقيقة ترقى به لبلوغ حكم عالية وغايات سامية. "(الكلمات ٨٠٤)

أليس ذلك دليلا على الله تعالى يبين عظمته وحكمته وقدرته؟

ويربط الأستاذ النورسي،رحمه الله، بين مواضع من رسائل النور يستدل بها على ما هو فيه من أمر دالا على أن الله تعالى هو صاحب الأمر في الكون كله لا شريك له في أي أمر من أمور الوجود، مبينا بمنطق قرآني بديع أن من له الهيمنة على الكون

كله لا يمكن أن يخرج عن سلطانه ذرة من ذراته أو يكون لغيره عليها وعليه سلطان، قال رحمه الله: "فكما أثبتنا في الموقف الأول من الكلمة الثانية والثلاثين: أن الموجودات مرتبطة ببعضها ارتباطاً معنوياً وثيقاً إلى حد لا يدع مجالاً قط لمداخلة أي شريك، حتى بمقدار ذرة واحدة من المداخلة، ابتداءً من الذّرات وانتهاءً بالمجرات. فَمَنْ لم يكن مسخَّراً لحُكمه جميع المجرات والنجوم والسيارات ويملك زمام أمورها ويتصرف بمقاليد شؤونها، لا يمكنه أن يُوقِّعَ حُكمَهُ، ويُمْضي أمرهُ على ذرة واحدة، أي -بعبارة أخرى -مَنْ يكون رباً حقيقياً على ذرة واحدة ينبغي أيضاً أن يكون مالكاً لمقاليد الكون كله.

وفي ضوء ما أوضحنا وأثبتنا في (الموقف الثاني) من الكلمة الثانية والثلاثين: أنه من يعجز عن الهيمنة على السماوات كلها يعجز عن رسم خطوط سيماء الإنسان، أي إن لم يكن ربّاً لما في السماوات والأرض، لا يستطيع أن يخط ملامح وجه إنسان، ويضع عليه علاماته الفارقة."(الكلمات ٨٠٤)

ما أجمله من كلام ينزل على القلب نزول الماء البارد على الظمأ في بيان ناصع وحجة قوية لا يملك العقل إلا أن يسجد لله أمامها، ومن لا يبصر هذه الحقائق ومن تغيب عنه لأي سبب من

الأسباب فليس حريا أن يكون من الناس.

ويختم الأستاذ النورسي هذه النافذة من نوافذ الإيمان فيقول: "وهكذا تجد أمامك نافذة واسعة سعة الكون كله فإذا ما أطْلَلْتَ منها تجد -حتى بعين العقل -أن الآيات الكريمة الآتية، قد كُتبت بحروف كبيرة واضحة على صفحات الكون كله:

﴿ٱللَّهُ خَٰلِقُ كُلِّ شَيۡءٖۖ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ وَكِيلٞ ۝٦٢ لَّهُۥ مَقَالِيدُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۗ﴾ (الزُّمَر/٦٢ – ٦٣).

لذا فَمَنْ لا يستطيع رؤية هذه الحروف البارزة العظيمة المسطرة على صحيفة الكائنات، فما هو إلاّ واحد من ثلاثة: إما فاقد عقله.. أو فاقد قلبه.. أو آدمي الصورة أنعامي التطلعات."

(الكلمات ٨٠٤)

الكون بما فيه من آيات كتاب مفتوح يقرؤه كل ذي عينين وإن كان أميا، فبوابة التفكر مفتوحة ما دامت حواس الإنسان سليمة، وعقله قادرا على التدبر وقلبه قادرا على الإحساس.

من ثمرات الإيمان

الإيمان بالله ومعرفة الله وحب الله وطاعة الله هي: غاية حياة الإنسان. فإن سار في هذا الصراط كان في حياة طيبة، وانتقل بعد الحياة إلى منقلب أطيب، وإن لم يكن كذلك كان في عتمة ليل لا مخرج له منه.

ولنستمع إلى الأستاذ بديع الزمان سعيد النورسي رحمه الله وهو يقول: "اعلم يقيناً أن أسمى غاية للخلق، وأعظم نتيجة للفطرة الإنسانية.. هو "الإيمان بالله".. واعلم أن أعلى مرتبة للإنسانية، وأفضل مقام للبشرية.. هي "معرفة الله" التي في ذلك الإيمان.. واعلم أن أزهى سعادة للإنس والجن، وأحلى نعمة.. هي "محبة الله" النابعة من تلك المعرفة.. واعلم أن أصفى سرور لروح الإنسان، وأنقى بهجة لقلبه.. هو "اللذة الروحية" المترشحة من تلك المحبة.

أجل، إن جميع أنواع السعادة الحقة، والسرور الخالص، والنعمة التي ما بعدها نعمة، واللذة التي لا تفوقها لذة، إنما هي في "معرفة الله".. في "محبة الله". فلا سعادة، ولا مسرة، ولا نعمة حقاً بدونها.

فكل من عرف الله تعالى حق المعرفة، وملأ قلبه من نور

محبته، سيكون أهلاً لسعادة لا تنتهي، ولنعمة لا تنضب، ولأنوار وأسرار لا تنفد، وسينالها إما فعلاً وواقعاً أو استعداداً وقابلية. بينما الذي لا يعرف خالقه حق المعرفة، ولا يكنّ له ما يليق من حب وود، يصاب بشقاء مادي ومعنوي دائمين، ويظل يعاني من الآلام والأوهام ما لا يحصر.

نعم، إن هذا الإنسان البائس الذي يتلوى ألماً من فقده مولاه وحاميه، ويضطرب من تفاهة حياته وعدم جدواها، وهو عاجز وضعيف بين جموع البشرية المنكودة.. ماذا يغنيه عما يعانيه ولو كان سلطان الدنيا كلها، فما أشد بؤس هذا الإنسان المضطرب في دوامة حياة فانية زائلة وبين جموع سائبة من البشر إن لم يجد مولاه الحق، ولم يعرف مالكه وربه حق المعرفة، ولكن لو وجد ربه وعرف مولاه ومالكه لالتجأ إلى كنف رحمته الواسعة، واستند إلى جلال قدرته المطلقة.. ولتحولت له الدنيا الموحشة روضة مؤنسة، وسوق تجارة مربحة." (المكتوبات/٢٨٩)

سؤال لا بد أن يلح علينا في ليلنا ونهارنا، وصحونا ومنامنا، وفي كل أحوالنا هو: لماذا خلقنا؟ ولعلنا نرى في من حولنا من الناس من يعيش عمرا طويلا ويغادر الحياة وهو لم يسأل نفسه هذا السؤال. لقد قرأنا في كتاب ربنا سبحانه بيان غاية الخلق:

﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾.

والعبادة تعني الطاعة والانقياد، وكيف تتم عبادة الله تعالى إن لم نؤمن به؟ وكيف نؤمن به إن لم نعرفه؟؟

فالإيمان أساس العبادة، ولا بد للإيمان من أساس يقوم عليه، وأساس الإيمان المعرفة، والله ربنا سبحانه وتعالى عرفنا بنفسه في كتابه بذكر أسمائه الحسنى التي أمرنا أن ندعوه بها:

﴿وَلِلَّهِ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ فَٱدْعُوهُ بِهَا﴾.

وعرفنا ربنا سبحانه بنفسه من خلال آياته المبثوثة في الأنفس والآفاق، فحيث ما نظرنا وجدنا تجليات أسمائه الحسنى مما يزيدنا به معرفة وبه إيمانا وله حبا.

فانظر أنى شئت تجد تجليات اسم الله الحي المحيي في كل ما يقع عليه بصرك من الكائنات الحية، ما كان منها بشرا مثلك، أو كان مما يمشي على رجلين أو يمشي على أربع أو يمشي على بطنه، وما كان يطير في جو السماء أو يسبح في الماء ويغوص في أعماق البحر، ما كان منها حيوانا أو نباتا ففي كل حي يتجلى اسم الله الحي المحيي.

وفي مقابل اسم الله الحي المحيي تجد اسم الله المميت في حال كل مخلوق انتهى عمره وحان أجله.

وانظر في ما حولك وانظر كيف يتجلى اسم الله الرزاق في الأسواق وفي الحقول والبساتين.

ومع اسمه الرزاق تتجلى أسماء أخرى منها: الخالق والبارئ والمصور. ويتجلى اسمه البديع والجميل في تجليات الخلق وألوان الجمال.

ويتجلى اسمه الشافي في كل ما له علاقة بعلاج ما يطرأ على الإنسان والحيوان من اختلال واعتلال في الصحة، فيتجلى ذلك على يد الطبيب والممرض وكل من له علاقة بهذا المجال.

وهكذا إن مضيت في رحلة الشهود في أنحاء الوجود عرفت ربك سبحانه على قدر ما نلت من العلم.

ومن عرف الله تعالى أحبه، وما له لا يحبه وهو يرى آثار نعمته عليه وعلى من حوله وما حوله ظاهرة وباطنة، والله تعالى أغلى وأعلى من يحب، وها هو القرآن الكريم يحدثنا عن حب المؤمنين لربهم فيقول:

﴿ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَندَادًا يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ ٱللَّهِ ۖ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَشَدُّ حُبًّا لِّلَّهِ ۗ ﴾.

فهناك من الناس من يحب غير الله تعالى حبا يفوق حبه لله، أولئك الذين وصفهم النبي الكريم عليه الصلاة والسلام بعبيد الأشياء: حديث أبي هريرة" تعس عبد الدينار تعس عبد الدرهم وعبد الحلة وعبد الخميصة " ❖❖ أخرجه البخاري

المؤمن الذي عرف ربه لا يرضى ربا سواه ولذلك يكرر شعار التوحيد: لا إله إلا الله، ما شاء الله له أن يكرره ليثبّت معنى التوحيد في قلبه، ولا يكون فيه مكان لغير حب الله أو الحب في الله.

وأي شرف أعظم من أن يحس الإنسان الضعيف الذي إذا قيس بكثير ممن حوله من الكائنات كان جرما صغيرا، أن يحس هذا الإنسان أن له لدى الله تعالى منزلة الحب وأن ربه رب العالمين يبادله حبا بحبه، ألم يبين ذلك ربنا سبحانه بقوله:

﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَن يَرْتَدَّ مِنكُمْ عَن دِينِهِۦ فَسَوْفَ يَأْتِى ٱللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُۥٓ أَذِلَّةٍ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى ٱلْكَـٰفِرِينَ ﴾ (المائدة/٥٤).

إن ثمرة الإيمان بالله ومعرفته ومحبته سعادة دنيوية غامرة لا تدع في قلب المؤمن موضعا لخوف أو حزن أو قلق. وقد حدثنا القرآن عن المؤمنين الذين عرفوا ربهم وعبدوه وأحبوهم أنهم لا خوف عليهم ولا هم يحزنون، وتلك من آثار الرعاية الربانية لهم والآيات في هذا كثيرة ومنها قوله تعالى:

﴿وَمَا نُرْسِلُ ٱلْمُرْسَلِينَ إِلَّا مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ ۖ فَمَنْ ءَامَنَ وَأَصْلَحَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ (الأنعام/٤٨).

وقوله سبحانه:

﴿يَـٰبَنِىٓ ءَادَمَ إِمَّا يَأْتِيَنَّكُمْ رُسُلٌ مِّنكُمْ يَقُصُّونَ عَلَيْكُمْ ءَايَـٰتِى ۙ فَمَنِ ٱتَّقَىٰ وَأَصْلَحَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ (الأعراف/ ٣٥).

ومن ثمرات الإيمان بالله ومحبته ومعرفته الثقة بالله تعالى والتوكل عليه وزوال القلق من النفس:

﴿ٱلَّذِينَ قَالَ لَهُمُ ٱلنَّاسُ إِنَّ ٱلنَّاسَ قَدْ جَمَعُوا۟ لَكُمْ فَٱخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَـٰنًا وَقَالُوا۟ حَسْبُنَا ٱللَّهُ وَنِعْمَ ٱلْوَكِيلُ ﴿١٧٣﴾ فَٱنقَلَبُوا۟ بِنِعْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَفَضْلٍ لَّمْ يَمْسَسْهُمْ سُوٓءٌ وَٱتَّبَعُوا۟ رِضْوَٰنَ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ ذُو فَضْلٍ

عَظِيمٍ ﴾ (آل عمران: ١٧٣ ـ ١٧٤).

وها هو القرآن الكريم يبين لنا موقف المؤمنين الواثقين بربهم في مواجهة أعدائهم الذين يهددونهم في هذه الصورة الحية:

﴿ قُلْ هَلْ تَرَبَّصُونَ بِنَآ إِلَّآ إِحْدَى ٱلْحُسْنَيَيْنِ ۖ وَنَحْنُ نَتَرَبَّصُ بِكُمْ أَن يُصِيبَكُمُ ٱللَّهُ بِعَذَابٍ مِّنْ عِندِهِۦٓ أَوْ بِأَيْدِينَا ۖ فَتَرَبَّصُوٓا۟ إِنَّا مَعَكُم مُّتَرَبِّصُونَ ﴾ (التوبة/ ٥٢).

هذا حال من عرف ربه فأحبه وأنس به، وسار على الصراط المستقيم الذي يقوده من الدنيا إلى بوابة الجنة، وأما من أعرض عن ربه فلم يعرفه ولم يعبده ولم يحبه فإنه يكون في متاهة صورها قول ربنا:

﴿ وَمَن كَانَ فِى هَٰذِهِۦٓ أَعْمَىٰ فَهُوَ فِى ٱلْءَاخِرَةِ أَعْمَىٰ وَأَضَلُّ سَبِيلًا ﴾ (الإسراء/٧٢).

وقوله:

﴿ وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُۥ مَعِيشَةً ضَنكًا وَنَحْشُرُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ أَعْمَىٰ ﴿١٢٤﴾ قَالَ رَبِّ لِمَ حَشَرْتَنِيٓ أَعْمَىٰ وَقَدْ كُنتُ بَصِيرًا ﴿١٢٥﴾ قَالَ كَذَٰلِكَ أَتَتْكَ ءَايَٰتُنَا فَنَسِيتَهَا ۖ وَكَذَٰلِكَ ٱلْيَوْمَ تُنسَىٰ ﴾ (طه/ ١٢٤ – ١٢٦)

وما أعظمه من عقاب ذلك الإحساس بالإعراض والإهمال الذي يجده الذين لم يعرفوا ربهم ولم يعبدوه وهو ما صوره قول ربنا سبحانه في وصف حال فريق منهم:

﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَشْتَرُونَ بِعَهْدِ ٱللَّهِ وَأَيْمَٰنِهِمْ ثَمَنًا قَلِيلًا أُو۟لَٰٓئِكَ لَا خَلَٰقَ لَهُمْ فِى ٱلْءَاخِرَةِ وَلَا يُكَلِّمُهُمُ ٱللَّهُ وَلَا يَنظُرُ إِلَيْهِمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وَلَا يُزَكِّيهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾ (آل عمران/٧٧).

انظروا ماذا في السماوات

قال الأستاذ بديع الزمان سعيد النورسي رحمه الله:

في إحدى الليالي، كنت على ارتفاع عظيم، في وكر منصوب على قمة شجرة «القطران» المرتفعة على قمة من قمم جبل «چام»

"نظرت من هناك إلى وجه السماء الأنيس الجميل المزين بمصابيح النجوم فرأيت أن في القسم الوارد في الآية الكريمة

﴿فَلَآ أُقۡسِمُ بِٱلۡخُنَّسِ ١٥ ٱلۡجَوَارِ ٱلۡكُنَّسِ﴾

نورا ساميا من أنوار الإعجاز وشاهدت فيه سرا بليغا لامعا من أسرار البلاغة. نعم إن هذه الآية الكريمة تشير إلى النجوم السيارة وإلى استتارها وانتشارها فتعرض الآية أمام أنظار المشاهد نقشا بديعا متقن الصنع في وجه السماء وترسم لوحة رائعة تلقن العبرة والدرس "(المكتوبات / ١٨)

السماء هي سقف أرضنا، تحيط بنا من الأفق إلى الأفق، يتجلى منها في النهار نور الشمس فتشرق الأرض وتدب فيها

الحياة، وتنطلق الكائنات تبحث عن رزقها، وتبدو آيات الله تعالى في الأرض بارزة لكل ذي عينين، وتغرب فتتجلى آيات الله تعالى في السماء في أبهى صورها، فيها الجمال والجلال، وفيها البهاء والسناء.

هذه السماء التي هي سقف أرضنا بل هي المحيطة بنا من كل جانب،هي بيت الآيات الربانية التي تذهل العقول وتأسر الألباب. يكون هذا وأنت تنظر بالعين المجردة التي تكتشف من السماء سطحا يشبه ما يبدو لك من آيات البحر وأنت تنظر إليه واقفا على الشاطئ، أو ناظرا إليه من الجو وأنت تركب طائرة، وما يخفى عنك أضعاف أضعاف ما يبدو لك. أفأعطينا السماء حقها من التفكر والتدبر، والنظر والتأمل أم أننا ننشغل عنها بالأرض وما فيها بل بهموم العيش ومشاغل الحياة التي تشغلنا عن آيات ربنا في السماء والأرض ليصدق فينا قول ربنا سبحانه:

﴿وَكَأَيِّن مِّنْ ءَايَةٍ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ يَمُرُّونَ عَلَيْهَا وَهُمْ عَنْهَا مُعْرِضُونَ﴾ (يوسف/١٠٥).

وقد حدثنا ربنا سبحانه عن هذه السماء حديثا مفصلا يكشف لنا عن بداياتها ونهاياتها، وعن ظاهرها وباطنها، وعن الآيات الربانية المتجلية فيها، وعما ستكون عليه قبيل الانقلاب الكوني الذي يسبق يوم القيامة.

فمن الحديث عن نشأة الكون أخبرنا القرآن الكريم أن السماء كانت دخانا وكان بينها وبين ربها سبحانه حوار نقرؤه في قوله سبحانه:

﴿قُلْ أَئِنَّكُمْ لَتَكْفُرُونَ بِالَّذِي خَلَقَ الْأَرْضَ فِي يَوْمَيْنِ وَتَجْعَلُونَ لَهُ أَندَادًا ذَٰلِكَ رَبُّ الْعَالَمِينَ (٩) وَجَعَلَ فِيهَا رَوَاسِيَ مِن فَوْقِهَا وَبَارَكَ فِيهَا وَقَدَّرَ فِيهَا أَقْوَاتَهَا فِي أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ سَوَاءً لِّلسَّائِلِينَ (١٠) ثُمَّ اسْتَوَىٰ إِلَى السَّمَاءِ وَهِيَ دُخَانٌ فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ ائْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَا أَتَيْنَا طَائِعِينَ (١١) فَقَضَاهُنَّ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ فِي يَوْمَيْنِ وَأَوْحَىٰ فِي كُلِّ سَمَاءٍ أَمْرَهَا وَزَيَّنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِمَصَابِيحَ وَحِفْظًا ذَٰلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ﴾ (فُصِّلَت/٩ – ١٢).

كانت السماء دخانا ثم صارت بأمر الله تعالى وقضائه بناء تجلى في سبع سماوات لكل سماء أهلها، وفي كل سماء أمرها،

وتجلت السماء الدنيا في زينة تتلألأ بالأنوار في بروج تلفت الأنظار وفي مصابيح معلقة في جو السماء، تسر العين إن رأتها، وتشد الفكر إلى سرها، ومصدر هذا النور الذي لا ينطفئ فيها.

وقد حدثنا ربنا عن ذلك في أكثر من موضع في كتابه الكريم:

﴿وَلَقَدْ جَعَلْنَا فِي ٱلسَّمَآءِ بُرُوجًا وَزَيَّنَّـٰهَا لِلنَّـٰظِرِينَ ﴾ (الحِجر/١٦).

﴿ تَبَارَكَ ٱلَّذِى جَعَلَ فِى ٱلسَّمَآءِ بُرُوجًا وَجَعَلَ فِيهَا سِرَٰجًا وَقَمَرًا مُّنِيرًا ﴾ (الفرقان/٦١).

﴿وَٱلسَّمَآءِ ذَاتِ ٱلْبُرُوجِ ﴾ (البروج/١).

والسماء ليست فضاء أو فراغا هائلا بل هي بناء محكم، لها أبواب وفيها معارج، يدبر فيها الأمر وينزل إلى الأرض، ويعرج إليها ما يكون من عمل الخلق على الأرض

﴿ أَفَلَمْ يَنظُرُوٓاْ إِلَى ٱلسَّمَآءِ فَوْقَهُمْ كَيْفَ بَنَيْنَـٰهَا وَزَيَّنَّـٰهَا وَمَا لَهَا مِن فُرُوجٍ ﴾(ق/٦).

﴿وَالسَّمَاءِ وَمَا بَنَاهَا﴾ (الشمس/٥).

﴿يَعْلَمُ مَا يَلِجُ فِي الْأَرْضِ وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا وَمَا يَنزِلُ مِنَ السَّمَاءِ وَمَا يَعْرُجُ فِيهَا ۚ وَهُوَ الرَّحِيمُ الْغَفُورُ﴾ (سبأ/ ٢).

﴿يُدَبِّرُ الْأَمْرَ مِنَ السَّمَاءِ إِلَى الْأَرْضِ ثُمَّ يَعْرُجُ إِلَيْهِ فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُ أَلْفَ سَنَةٍ مِّمَّا تَعُدُّونَ﴾ (السجدة/٥).

﴿فَفَتَحْنَا أَبْوَابَ السَّمَاءِ بِمَاءٍ مُّنْهَمِرٍ﴾ (القمر/١١).

وها هو القرآن الكريم يلفت الأنظار إلى ما في السماء من التناسق والانسجام الذي لا تفاوت معه ولا اختلاف ويلفت إلى ما يصيب العقل البشري من الكلال وهو يحاول استيعاب أقطار السماء

﴿تَبَارَكَ الَّذِي بِيَدِهِ الْمُلْكُ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (١) الَّذِي خَلَقَ الْمَوْتَ وَالْحَيَاةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا ۚ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْغَفُورُ (٢) الَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ طِبَاقًا ۖ مَّا تَرَىٰ فِي خَلْقِ الرَّحْمَٰنِ مِن تَفَاوُتٍ ۖ فَارْجِعِ الْبَصَرَ هَلْ تَرَىٰ مِن فُطُورٍ (٣) ثُمَّ ارْجِعِ الْبَصَرَ كَرَّتَيْنِ يَنقَلِبْ إِلَيْكَ الْبَصَرُ خَاسِئًا وَهُوَ حَسِيرٌ﴾ (المُلك/

١ – ٤).

وقد أشار القرآن الكريم إلى أن بناء السماء في امتداد واتساع، وهذا أمر وقف البشر في زماننا على طرف منه بما فتح الله تعالى على الناس في علم الفلك وبما أمدهم به من علم اخترعوا به المراصد الفلكية الهائلة التي كشفت عن معنى قوله تعالى:

﴿ وَٱلسَّمَآءَ بَنَيۡنَٰهَا بِأَيۡيْدٖ وَإِنَّا لَمُوسِعُونَ ﴾ (الذاريات/٤٧).

وليست السماء فضاء مباحا للمخلوقات بل هي محفوظة محمية،

﴿ وَجَعَلۡنَا ٱلسَّمَآءَ سَقۡفٗا مَّحۡفُوظٗاۖ وَهُمۡ عَنۡ ءَايَٰتِهَا مُعۡرِضُونَ ﴾ (الأنبياء/٣٢).

وقد حدثنا القرآن الكريم عما قاله الجن في هذا الشأن

﴿وَأَنَّا كُنَّا نَقۡعُدُ مِنۡهَا مَقَٰعِدَ لِلسَّمۡعِۖ فَمَن يَسۡتَمِعِ ٱلۡأٓنَ يَجِدۡ لَهُۥ شِهَابٗا رَّصَدٗا﴾ (الجن/٩).

وقال سبحانه:

﴿وَلَقَدۡ زَيَّنَّا ٱلسَّمَآءَ ٱلدُّنۡيَا بِمَصَٰبِيحَ وَجَعَلۡنَٰهَا رُجُومٗا لِّلشَّيَٰطِينِۖ وَأَعۡتَدۡنَا لَهُمۡ عَذَابَ ٱلسَّعِيرِ﴾ (المُلك/٥).

وجاء التهديد القرآني للإنس والجن إن هم سعوا إلى اختراق السماوات في قول الله تعالى:

﴿يَٰمَعۡشَرَ ٱلۡجِنِّ وَٱلۡإِنسِ إِنِ ٱسۡتَطَعۡتُمۡ أَن تَنفُذُواْ مِنۡ أَقۡطَارِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ فَٱنفُذُواْۚ لَا تَنفُذُونَ إِلَّا بِسُلۡطَٰنٖ ﴿٣٣﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٣٤﴾ يُرۡسَلُ عَلَيۡكُمَا شُوَاظٞ مِّن نَّارٖ وَنُحَاسٞ فَلَا تَنتَصِرَانِ﴾ (الرحمن/ ٣٣ – ٣٥).

وإذا كنا قد شهدنا في زماننا تحليق الإنسان في جو السماء كالطيور في طائرات متنوعة، وفي مراكب فضائية دارت حول الأرض، وحط بعضها على القمر وبعضها في بعض الكواكب فما ذلك إلا كالخروج من باب بيت إلى عتبته قياسا إلى هذه السماء التي يدور العقل إن هو حاول تصور سعتها فالأرقام ستتكاثر إلى الحد الذي يذهل العقل ويجعله يعلن العجز عن الإدراك. والسماء مصدر الخير ففيها الرزق الذي يتنزل على الناس

﴿وَفِي السَّمَاءِ رِزْقُكُمْ وَمَا تُوعَدُونَ﴾ (الذاريات/٢٢)

ومن السماء يتنزل الماء

﴿الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ فِرَاشًا وَالسَّمَاءَ بِنَاءً وَأَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجَ بِهِ مِنَ الثَّمَرَاتِ رِزْقًا لَّكُمْ ۖ فَلَا تَجْعَلُوا لِلَّهِ أَندَادًا وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ (البقرة/٢٢).

وفي السماوات آيات لأولي الألباب الذين ينظرون بعين مبصرة ويفكرون بعقل واع

﴿إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لَآيَاتٍ لِّأُولِي الْأَلْبَابِ﴾ (آل عمران/١٩٠).

والقرآن الكريم يأمرنا بالنظر في السماوات والأرض لنكتشف ما فيهما من الآيات ولعل مما يجب أن يلفت نظر الإنسان هذه السماوات التي لا يرى ما يسندها ويحفظها من أن تقع نجومها وكواكبها على الأرض وذلك ما يشير إليه القرآن الكريم في أكثر من موضع:

﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى رَفَعَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا ۖ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ ۖ وَسَخَّرَ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ ۖ كُلٌّ يَجْرِى لِأَجَلٍ مُّسَمًّى ۚ يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ يُفَصِّلُ ٱلْءَايَٰتِ لَعَلَّكُم بِلِقَآءِ رَبِّكُمْ تُوقِنُونَ﴾ (الرعد/٢).

﴿خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا ۖ وَأَلْقَىٰ فِى ٱلْأَرْضِ رَوَٰسِىَ أَن تَمِيدَ بِكُمْ وَبَثَّ فِيهَا مِن كُلِّ دَآبَّةٍ ۚ وَأَنزَلْنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَنۢبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ زَوْجٍ كَرِيمٍ﴾ (لقمان/١٠).

﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ سَخَّرَ لَكُم مَّا فِى ٱلْأَرْضِ وَٱلْفُلْكَ تَجْرِى فِى ٱلْبَحْرِ بِأَمْرِهِۦ وَيُمْسِكُ ٱلسَّمَآءَ أَن تَقَعَ عَلَى ٱلْأَرْضِ إِلَّا بِإِذْنِهِۦٓ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ بِٱلنَّاسِ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾ (الحج/ ٦٥).

هذه السماء بجمالها وجلالها وآيات الله تعالى الظاهرة والخفية فيها سيصيبها قبيل القيامة تغيرات وتبدلات تحدث القرآن الكريم عنها حديثا عاما وحديثا مفصلا، فمن الحديث العام قوله سبحانه

﴿يَوْمَ تُبَدَّلُ ٱلْأَرْضُ غَيْرَ ٱلْأَرْضِ وَٱلسَّمَٰوَٰتُ ۖ وَبَرَزُوا۟ لِلَّهِ ٱلْوَٰحِدِ

ٱلْقَهَّارِ ﴾ (إبراهيم/٤٨).

ومن الحديث المفصل الذي يسبق يوم القيامة ويكون مقدمة لها قوله تعالى:

﴿إِذَا ٱلسَّمَآءُ ٱنفَطَرَتْ ۝١ وَإِذَا ٱلْكَوَاكِبُ ٱنتَثَرَتْ﴾ (الانفطار/١- ٢).

﴿إِذَا ٱلسَّمَآءُ ٱنشَقَّتْ ۝١ وَأَذِنَتْ لِرَبِّهَا وَحُقَّتْ﴾ (الانشقاق/١- ٢).

﴿ فَإِذَا ٱنشَقَّتِ ٱلسَّمَآءُ فَكَانَتْ وَرْدَةً كَٱلدِّهَانِ﴾ (الرحمن/٣٦).

﴿وَٱنشَقَّتِ ٱلسَّمَآءُ فَهِىَ يَوْمَئِذٍ وَاهِيَةٌ﴾ (الحاقة/١٦).

﴿وَإِذَا ٱلسَّمَآءُ فُرِجَتْ﴾ (المرسلات/٩).

﴿وَإِذَا ٱلسَّمَآءُ كُشِطَتْ﴾ (التكوير/١١).

﴿ يَوْمَ تَمُورُ ٱلسَّمَآءُ مَوْرًا ﴾ (الطور/٩).

هذه بعض أحوال السماء وأخبارها كما أخبرنا عنها القرآن الكريم ووراء ذلك آفاق واسعة يكشفها العلم وتأويل الأيام القادمة.

رسائل النور وأختامه

امتلك بديع الزمان سعيد النورسي رحمه الله عقلا متميزا قل نظيره في عرض المسائل وتحليلها والغوص في الأمور المعقدة وتقديمها في صورة ميسرة، فلم يكن همه عرض قدراته العقلية بقدر ما كان همه أن يكشف الحقائق للناس ليبصروها فيصبح البعيد قريبا والغامض واضحا والمعقد بسيطا، ومع هذه العقلية المتميزة كان لبديع الزمان قلب حي لا يملك مثله أعظم الشعراء حساسية، ويملك قدرة على التعبير الندي يقصر عن بلوغها كثير من البلغاء. وهذا ما يتجلى في مواضع كثيرة من رسائل النور.ومنها النافذة التاسعة والعشرون من نوافذ النور التي نحس فيها ببوح قلب تلسعه الغربة عن الديار، فقد أمضى قريبا من ثلث قرن في إقامة جبرية بعيدا عن أهله ودياره، تحصى عليه أنفاسه وينقل من منطقة إلى أخرى، في هذه الغربة كانت رسائل النور تنير حياته، وتجعله يعيش في رحاب الله تعالى، يتأمل الطبيعة الجميلة الممتدة أمامه ويقرأ الرسائل الربانية المتجلية فيها..

في النافذة التاسعة والعشرين من نوافذ النور تتجلى لنا الغربة مع النفس الشاعرة والقلب الحي والعين البصيرة، وبعد أن

استفتح النافذة بالآية الكريمة:

﴿وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ﴾ (الإسراء/٤٤)

قال: "كنت سارحاً في رفقة غربتي، أسوح مع الفكر، وأجول مع الخيال والتأمل، فقادتني قدماي إلى سفح رابية مزدانة بالخضرة، فرنت إليَّ -على استحياء -من وسط هذا البساط الأخضر، زهرة صفراء ساطعة الصفرة، وألوت بجيدها إليَّ تناغيني بودّ ومحبَّة، فأثارت مشاعري وأشواقي إلى زهرات مثلها كنت التقيَها في ربوع بلدتي (وان) وفي سائر المدن الأخرى التي كانت تحتضن غربتي مرةً بعد أخرى، فانثال هذا المعنى فجأةً على قلبي، وها أنذا أسرده كما ورد "(الكلمات/الكلمة ٣٣ / ٨٢٢)

أرأيت كيف تتجلى المشاهد البديعة التي تنقل مخبوء الشعور إلى جانب بديع التصوير، إلى التشخيص الجميل الذي يجعل الكائنات من حوله حية تحس وتعبر، وما لها لا تكون كذلك وهو يعيش في ظلال آية تخبر أن كل شيء يسبح بحمد الله تعالى؟؟ ها هو بديع الزمان في جولة ربيعية تتجلى له فيها المشاهد البديعة والكائنات الجميلة، وأول ما يلفت نظره زهرة صفراء فاقع لونها تسر الناظرين وتثير لديه كوامن الذكرى يوم

كان في ديار صباه في شرق تركيا، وانظر كيف يقرأ هذه الزهرة الجميلة وماذا يسمع منها:

"هذه الزهرة الرقيقة ليست إلاّ طغراء على صفحة الجمال، وختم يختم به خالقُ الجمال رسالته الخضراء إلى العالم، فَمَنْ كانت هذه الزهرة طغراءه ونقشه على البساط الأخضر فإن جميع الأنواع من هذه الزهرة إذن هي أختامه على بسط الأرض جميعاً، وعلامات وحدة صنعه." (الكلمات / ٨٢٣)

كم نرى الأزهار في الربيع، وكم نعجب بجمالها وشكلها وألوانها، وكم منا من يردد وهو يراها: سبحان الله، ما أجمل خلق الله، لقد تجلت هذه الزهرة وأشباهها لبديع الزمان رحمه الله في صورة (طغراء) وهو التوقيع الذي يكتب في صورة جمالية خاصة وكان معروفا لدى السلاطين العثمانيين، وكان لكل منهم طغراؤه الخاص المميز له، هذه الزهرة وأشباهها هي طغراء وختم دال على الله تعلى الخالق البديع الجميل سبحانه. ونمضي مع بديع الزمان في رحلته التصاعدية من الزهرة وأشباهها إلى ما وراء ذلك ليتسع المشهد رويدا رويدا لينتقل من الختم والطغراء إلى الرسالة التي وجد عليها، قال رحمه الله: "وعقب هذه الصورة المتخيلة ورد إلى القلب هذا التصور: إن الختم المختوم به أية رسالة

كانت إنما يدل على صاحب الرسالة. فهذه الزهرة إنما هي ختم رحماني على رسالة الرحمن. وهذه الرسالة هي سفح التل الصغير المسطور فيها الكلمات البليغة للنباتات والأعشاب، والمحفور فوقها أنواع الزخارف الحكيمة الإتقان. فهذه الرسالة إذن تعود لصاحب الختم هذا.".(الكلمات ٨٢٣)

لقد اتسع المشهد من الزهرة إلى سفح التل الذي يضم الزهرة.

ويمضي الأستاذ النورسي بنا خطوة خطوة لنرى المزيد من الرسائل الربانية من حولنا: "ثم أوغلت في التأمل أكثر فأكثر. فإذا بهذا السفح الجميل يتحول في نظري ويأخذ صورة ختم كبير وواضح على رسالة هذه الفلاة الممتدة بعيداً. وانتصب السهل المنسبط أمام خيالي رسالةً رحمانيةً رائعةً، ختمُها هذا السفح الجميل." (الكلمات ٨٢٣)

إنه خيال المؤمن الذي لا بد أن يتسلح به لتكون لديه القدرة على تصور آيات الله تعالى في عالم الشهادة وفي عالم الغيب وليكون مع هذه القدرة على التخيل على بينة من أمره. كل ما يؤمن به له دلالة المحسوس الموثوق به.

بعد هذه الرحلة يضعنا الأستاذ النورسي أمام الحقيقة التي استخلصها من هذا المشهد المتسع:

"وقد أفضى بي هذا التصور إلى هذه الحقيقة: كما أن كلّ ختم على أية رسالة يشير إلى صاحبها، فكل شيء كالختم يُسنِّد جميعَ الأشياء التي تحيط به إلى خالقه الرحيم، وكأنه ختم رحماني. فكل شيء من حوله يمثل رسالةً لخالقه الرحيم.".(الكلمات ٨٢٣)

ما أحوجنا إلى هذا التصور الذي يكشف عن وجه الآية في كل شيء من حولنا، ويجعلنا نعيش في مشهد ممتد من الآيات لنكون من الذاكرين لا بالألسنة بل بالحواس والعقل والقلب. ويصل بنا الأستاذ النورسي إلى حافة نافذة الإيمان التي نبصر من خلالها أدلة القدرة والحكمة والإبداع الرباني: "وهكذا، فما من شيء إلاّ ويغدو نافذة توحيد عظيمة إلى حد يسلّم جميع الأشياء إلى الواحد الأحد... كل شيء -ولا سيما الأحياء -يملك من النقوش الحكيمة والإتقان البديع بحيث إن الذي خلقه على هذه الصورة البديعة قادرٌ على خلق جميع الأشياء، أي أن الذي لا يستطيع أن يخلق جميع الأشياء لا يمكن أن يخلق شيئاً واحداً."(الكلمات ٨٢٣)

في ختام هذا المشهد الجميل وما تولد عنه من أدلة التوحيد يلتفت الأستاذ النورسي رحمه الله إلى من لا يبصر ما أبصر، ومن هو معتقل في سجن غفلته تحجبه الأشياء عن ربه بدلا من أن تدله عليه فيقول له: "أيها الغافل، تأمل في وجه الكائنات تجد أن صحيفة الموجودات ما هي إلاّ بمثابة رسائل متداخلة بعضها في البعض الآخر، مبعوثة من قبل الأحد الصمد. وأن كل رسالة منها قد ختمَتْ بما لا يُعدُّ من أختام التوحيد. تُرى مَنْ يجرأ على تكذيب شهادات هذه الأختام غير المتناهية؟ أية قوة يمكنها أن تكتم أصوات هذه الشهادات الصادقة؟ وأنت إذا ما أنصتَّ بأذن القلب لأي منها تسمعها تردد: اَشْهَدُ اَنْ لآ اِلـهَ إلاّ الله."(الكلمات ٨٢٣)

الفهرس

الموضوع **الصفحة**

صدر للمؤلف

١. القدس تصرخ (ديوان شعر) دار البيان، الكويت ١٩٦٩م.
٢. قصائد للفجر الآتي (ديوان شعر) مكتبة الأقصى، عمان ١٩٨١م.
٣. مشاهد من عالم القهر (ديوان شعر) دار البشير، عمان ١٩٨٣م.
٤. أصداء الغزو المغولي في الشعر العربي/مكتبة الأقصى، عمان ١٩٨٣م.
٥. الغزو المغولي أحداث وأشعار/دار البشير، عمان ١٩٨٤م.
٦. الاتجاه الإسلامي في الشعر الفلسطيني الحديث/دار البشير، عمان ١٩٨٤م.
٧. خصائص القصة الإسلامية/دار المنارة جدة، ١٩٨٨م.
٨. شخصيات قرآنية/دار البشير، عمان ١٩٩٢م.
٩. من قصص النبي ﷺ /دار البشير، عمان ١٩٩٢م.
١٠. نظرات إسلامية في الأدب والحياة/المكتب الإسلامي، بيروت ١٩٩٣م.
١١. صور ومواقف من حياة الصالحين/دار البشير، عمان ١٩٩٥م.
١٢. صور ومواقف من حياة الصالحات/دار البشير، عمان ١٩٩٥م.
١٣. نداء إلى حكماء الأمة/دار الأعلام، عمان ٢٠٠٢م.
١٤. العلاقات الأسرية، رؤية إسلامية/دار الأعلام، عمان ٢٠٠٢م.
١٥. فلسطين ميراث الأنبياء/دار الأعلام، عمان ٢٠٠٢م.
١٦. رسالة إلى الشهداء (ديوان شعر)/ دار الأعلام ٢٠٠٣م.

١٧. معجم ابن بطوطة في رحلته/دار المأمون، عمان ٢٠٠٥.
١٨. محجبات ولكن!/دار المأمون، عمان ٢٠٠٦م.
١٩. أحاديث الفتن والفقه المطلوب/دار المأمون، عمان٢٠٠٦م.
٢٠. أسرار الأذكار/دار المأمون، عمان ٢٠٠٧م.
٢١. تسبيحات كونية(ديوان شعر)/ دار المأمون، عمان ٢٠٠٨م.
٢٢. لمسات قدرية في سورة يوسف/دار المأمون، عمان ٢٠٠٩م.
٢٣. صبوة قلب فجر حياة (شعر وخواطر)/ دار المأمون، عمان ٢٠٠٩م.
٢٤. المختار من السور والأذكار/دار المأمون، عمان ٢٠٠٩م.
٢٥. الأعمال الشعرية(١٩٦٦-٢٠٠٩)دار المأمون، عمان ٢٠١١م.

وسيصدر قريباً إن شاء الله:

٢٦. دراسات في الشعر الإسلامي.
٢٧. دراسات في الأدب الإسلامي.